التوحيد

مجلة • إسلامية • ثقافية • شهرية   تصدر عن جماعة أنصار السنة المحمدية   العدد ٥٢٤ السنة الرابعة والأربعون - شعبان ١٤٣٦هـ   الثمن جنيهان



دفاع عن السنة

- قصة مفتراة على العالم الحبر عكرمة للطعن في صحيح البخاري
- صحة حديث رؤية أبي هريرة للشيطان والرد على شبهات المعارضين



أنصار السنة في الميزان

كيف ينال العبد رضا الله؟



بدعة الخوارج والتحذير منها

بسم الله الرحمن الرحيم

فاعلم أنه لا إله إلا الله

صاحبة الامتياز
جماعة أنصار السنة المحمدية

رئيس مجلس الإدارة
د. عبد الله شاكر الجنيدي

المشرف العام
د. عبد العظيم بدوي

اللجنة العلمية
جمال عبد الرحمن
معاوية محمد هيكل
د. مرزوق محمد مرزوق

التحرير
٨ شارع قولة عابدين - القاهرة
ت: ٢٣٩٣٦٥١٧ - فاكس: ٢٣٩٣٠٦٦٢
البريد الإلكتروني
MGTAWHEED@HOTMAIL.COM
رئيس التحرير:
GSHATEM@HOTMAIL.COM
قسم التوزيع والاشتراكات
ت: ٢٣٩٣٦٥١٧
ISHTRAK.TAWHEED@YAHOO.COM
المركز العام:
هاتف: ٢٣٩١٥٥٧٦ - ٢٣٩١٥٤٥٦
WWW.ANSARALSONNA.COM

بشرى سارة

تعلن إدارة المجلة عن رغبتها في تفعيل التواصل بينها وبين القراء في كل ما يتعلق بالأمور الشرعية لعرضها على لجنة الفتوى ونشرها بالمجلة على البريد الإلكتروني التالي:
MGTAWHEED@HOTMAIL.COM

السلام عليكم

دفاع عن السنة

دينٌ أكمله الله لعباده، وارتضاه لخلقه، وتكفل بحفظه، وكلف رسوله بتبليغه ونشره، «رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» (الطلاق:١١).

فيتم التنوير الرباني بالقرآن، وبالسنة وهي البيان للقرآن، «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» (النحل:٤٤). قرآن وسنة.

والقرآن محفوظ باتفاق، وكذا السنة التي بلغت الآفاق، لأنها البيان كما قال الرحمن.

ونقل هذه السنة ودوّنها رجال كالبخاري ومسلم وأحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم، رحمهم الله.

والعجيب الذي يجب أن نعتقده وهو من دلائل النبوة؛ إخبار النبي بما يفعله أهل الضلال نحو القرآن، فقد قال المصطفى عن رافضي السنة: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه (وهي السنة)، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه» رواه أبو داود وصححه الألباني.

فهل الذين يدَّعون أنهم أهل التنوير وتجديد الخطاب الديني، جاءوا بنور يفوق نور الرسالة المحمدية، أم أنهم أحداث جدد يبدلون تراث أمة محمدية، وتاريخ دولة عالمية، ودينا ارتضاه الله لعباده.

ماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم عن مثل هذا الذي يفتي في أمر العامة؟ قال: «وينطق فيها الرويبضة». قالوا: وما الرويبضة؟ قال: «الرجل التافه». وفي رواية: «سفلة الناس». وفي أخرى: «الفويسق». وفي غيرها: «السفيه».

وختاما فإننا نبشر الجميع ببشرى الله لهم: «وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» (التوبة:٢٣)

التحرير

رئيس التحرير
جمال سعد حاتم

مدير التحرير الفني
حسين عطا القراط

سكرتير التحرير
مصطفى خليل أبو المعاطي

الإخراج الصحفي
أحمد رجب محمد
محمد محمود فتحي

في هذا العدد



ثمن النسخة

مصر ٢٠٠ قرش ، السعودية ٦ ريالات ، الإمارات ٦ دراهم ، الكويت ٥٠٠ فلس، المغرب دولار أمريكي ، الأردن ٥٠٠ فلس، قطر ٦ ريالات ، عمان نصف ريال عماني ، أمريكا دولاران ، أوروبا ٢ يورو

الاشتراك السنوي

١- في الداخل ٤٠ جنيهاً بحوالة فورية باسم مجلة التوحيد . على مكتب بريد عابدين ، مع إرسال صورة الحوالة الفورية على فاكس مجلة التوحيد ومرفق بها الاسم والعنوان ورقم التليفون.

٢- في الخارج ٢٥ دولاراً أو ١٠٠ ريال سعودى أو مايعادلهما.

ترسل القيمة بسويفت أو بحوالة بنكية أو شيك على بنك فيصل الإسلامي فرع القاهرة. باسم مجلة التوحيد. أنصار السنة حساب رقم / ١٩١٥٩٠

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

افتتاحية العدد

ضوابط الاستدلال بالنصوص عند أهل السنة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه وبعد:

فقد تناولنا في حلقات سابقة وجوب تعظيم النصوص الشرعية، وأهمية العمل بها وفق فهم الصحابة ومن تبعهم بإحسان، ورأيت بعد ذلك أن أتحدث عن منهج الاستدلال بالنصوص الشرعية عند أهل السنة والجماعة، فأقول وبالله تعالى التوفيق:

الضابط الأول: وجوب الرجوع إلى الكتاب والسنة عند التنازع:

إن مما يميز أهل السنة والجماعة تسليمهم المطلق لنصوص الوحي، وعدم تعدِّيها أو الخروج عليها، وهذا منهج أصيل عندهم، وهم بهذا يستجيبون لقول الله تعالى: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » (النساء:٥٩).

وهذا أمرٌ صريح بالرد إلى الله وإلى الرسول صلى الله عليه وسلم عند التنازع، وذلك حتى يرتفع التنازع والخلاف، وتجتمع الكلمة، قال ابن كثير: «قال مجاهد وغير واحد من السلف، أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يُرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة، كما قال الله تعالى: « وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ » (الشورى:١٠)، فما حكم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال». (تفسير ابن كثير ٧١٣/١).

وفي قوله تعالى في الآية: « إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » (النساء:٥٩)، دليل على أن هذا الرد متعين على المختلفين، وأنه شأن من يؤمن بالله واليوم الآخر، والاكتفاء بالكتاب والسنة عند التنازع والرجوع إليهما أمارة على صحة الإيمان، وأن ما ورد فيهما حق وصدق.

يقول ابن تيمية رحمه الله: «وأما خبر الله ورسوله فهو صدق، موافق لما الأمر عليه في نفسه، لا يجوز أن يكون شيء من أخباره باطلاً، ولا مخالفا لما هو الأمر عليه في نفسه، ويُعلم من حيث الجملة أن كل من عارض شيئًا من أخباره وناقضه، فإنه باطل من جنس حجج السفسطائية، وإن كان العالمُ بذلك قد لا يعلم وجه بطلان تلك الحجج المعارضة لأخباره، وهذه حال المؤمنين للرسول صلى الله عليه وسلم الذين علموا أنه رسول الله الصادق فيما يخبر به». (درء التعارض ٢٥٥/٥).

وكان أهل العلم من السلف على هذا المسلك لا يقدِّمون على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ويقفون عند

الوارد فيهما، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله ذلك عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وفي ذلك يقول: «فإذا وجد النص أفتى بموجبه، ولم يلتفت إلى ما خالفه، ولا من خالفه كائنًا من كان، ولهذا لم يلتفت إلى خلاف عمر في المبتوتة لحديث فاطمة بنت قيس.. ولم يكن يقدّم على الحديث الصحيح عملاً ولا رأيًا ولا قياسًا، ولا قول صاحب». (إعلام الموقعين ١/٢٩، ٣٠).

ومما يلحق بهذا الضابط: الاعتماد فقط على الصحيح والحسن من الأحاديث، خاصة في مسائل الاعتقاد التي دائمًا أركز عليها، وكان العلماء الراسخون في العلم على هذا، يقول ابن تيمية رحمه الله: «وقد يروي كثير من الناس في الصفات، وسائر أبواب الاعتقاد وعامة أبواب الدين: أحاديث كثيرة مكذوبة، موضوعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم.... والواجب أن يفرق بين الحديث الصحيح والحديث الكذب، فإن السنة هي الحق دون الباطل، وهي الأحاديث الصحيحة دون الموضوعة، فهذا أصل عظيم لأهل الإسلام عمومًا، ولمن يدّعي السنة خصوصًا». (مجموع الفتاوى ٣/٣٧٩، ٣٨٠).

ولذلك فإنه يجب الحذر عند رواية الحديث والاستدلال به، حتى لا يضل الإنسان بالاعتماد على ما لا يصح، والحديث الموضوع لا تجوز روايته إلا لبيان حاله، فكيف يؤخذ منه حكم شرعي؟ ومن المعلوم أن الأحكام الشرعية لا تكتب إلا بدليل شرعي.

يقول ابن تيمية: «وكذلك ما عليه العلماء من العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال: ليس معناه إثبات الاستحباب بالحديث الذي لا يحتج به، فإن الاستحباب حكم شرعي فلا يثبت إلا بدليل شرعي، ومن أخبر عن الله أنه يحب عملاً من الأعمال من غير دليل شرعي، فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله، كما لو أثبت الإيجاب أو التحريم، ولهذا يختلف العلماء في الاستحباب كما يختلفون في غيره، بل هو أصل الدين المشروع، فإذا انضمت أحاديث الفضائل الضعيفة تقديرًا وتحديدًا، مثل صلاة وقت معين بقراءة معينة، أو على صفة معينة لم يجز ذلك، لأن استحباب هذا الوصف المعين لم يثبت بدليل شرعي». (مجموع الفتاوى ١٨/٦٥-٦٧).

> **الواجب أن يُفرق بين الحديث الصحيح والحديث الكذب، فإن السنة هي الحق دون الباطل، وهي الأحاديث الصحيحة دون الموضوعة، فهذا أصل عظيم لأهل الإسلام عمومًا، ولمن يدّعي السنة خصوصًا.**

الضابط الثاني: الأخذ بظواهر النصوص ورد التأويل المذموم:

من المسلّم به عند أئمة السلف وجوب العمل بظواهر النصوص، وبفهم النص على مقتضى لغة العرب، وبالنصوص الأخرى الموضحة له من القرآن والسنة، ولا يجوز لنا أن نصرف النصوص عن ظواهرها بمعاني محتملة لا يدل عليها الكلام، والأصل في ذلك أن الألفاظ الواردة من المتكلم تدل على مراده، خاصة إذا كان المتكلم بها خالق الخلق أجمعين، أو رسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم، المؤيد بالوحي من ربه، والمتكلم أعرف بمراده من غيره، ولهذا وجب الأخذ بظاهر كلامه، وإلا كان في التأويل إبطال بكلامه.

يقول ابن القيم رحمه الله: «كل تأويل يعود على أصل النص بالإبطال فهو باطل، كتأويل قوله صلى الله عليه وسلم: «أيما امرأة نكحت نفسها بغير إذن وليها فنكاحها باطل». بحمله على الأَمَة، فإن هذا التأويل مع شدة مخالفته لظاهر اللفظ يرجع إلى أصل النص بالإبطال، وهو قوله: «فإن دخل بها فلها المهر بما استحل من فرجها»، ومهر الأمة إنما هو للسيد». (الصواعق المرسلة ١/١٩٧، ١٩٨).

وكذلك العمل بالتأويل على خلاف الظاهر يوجب تعطيل المعنى الذي هو في غاية العلو والشرف، ويحطه إلى معنى دونه بمراتب كثيرة، ومثال ذلك

تأويل الجهمية قوله تعالى: « وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ » (الأنعام:١٨)، وقوله تعالى: « يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ » (النحل:٥٠) بأنها فوقية الشرف، كقولهم الدينار فوق الدرهم، وهذا تأويل باطل ينزل بالمعنى المراد عن رتبته، يقول ابن القيم: «فتأمل تعطيل المتأولين حقيقة الفوقية المطلقة التي هي من خصائص الربوبية، وهي المستلزمة لعظمة الرب جل جلاله، وحطها إلى كون قدره فوق قدر بني آدم وأنه أشرف منهم، وكذلك تأويلهم علوه بهذا المعنى وأنه كعلو الذهب على الفضة، وكذلك تأويلهم استواءه على عرشه بقدرته عليه، وأنه غالب له، فيا لله العجب هل ضلت العقول وتاهت الأحلام، وشكت العقلاء في كونه سبحانه غالبًا لعرشه، قادرًا عليه، حتى يخبر به سبحانه في سبعة مواضع من كتابه مطردة بلفظ واحد». (المرجع السابق ١/١٩٩، ٢٠٠).

ولهذا أكثر السلف على ضرورة الأخذ بظاهر النص، لأنه هو الذي عناه المتكلم بكلامه، إلا كان عبثًا لا فائدة منه، وفي هذا طعن على المتكلم به.

يقول ابن الوزير رحمه الله: «لا يصح سكوت الشرع عن النص على ما يحتاج إليه من مهمات الدين، وثبت أن الإسلام متبع لا مخترع، ولذلك كفر من أنكر شيئًا من أركانه، لأنها معلومة ضرورة فأولى وأحرى ألا يجيء الشرع بالباطل منطوقًا متكررًا من غير تنبيه على ذلك، لا سيما إذا كان الذي سموه باطلاً هو المعروف في جميع آيات كتاب الله وجميع كتب الله، ولم يأت ما يناقضه حتى ينبه على وجوب التأويل». (إيثار الحق على الخلق ص١٣٠، ١٣١).

وقد تلقى الصحابة- رضوان الله عليهم أجمعين- الوحي عن الرسول صلى الله عليه وسلم وآمنوا وسلموا بظواهر هذه النصوص جميعها، يقول ابن تيمية رحمه الله: «ومن علم حال خاصة النبي صلى الله عليه وسلم كأبي بكر وعمر وغيرهما من السابقين علم أنهم كانوا أعظم الناس تصديقا لباطن أمر خبره ظاهر، وطاعتهم له في سرهم وعلانيتهم، ولم يكن أحد منهم يعتقد في خبره وأمره ما يناقض ظاهر ما بيّنه لهم ودلّهم عليه، وأرشدهم إليه، ولهذا لم يكن في الصحابة من تأول شيئًا من نصوصه على خلاف ما دل عليه، لا فيما أخبر به الله من أسمائه وصفاته، ولا فيما أخبر به عما بعد الموت». (مجموع الفتاوى ج/٢٥١، ٢٥٢).

والحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله مع تأثره نوعًا ما بعلم الكلام، إلا أنه عابه، وبيّن أنه لم يكن من معهود السلف، وفي ذلك يقول: «وقد توسع من تأخر عن القرون الثلاثة الفاضلة في غالب الأمور التي أنكرها أئمة التابعين وأتباعهم، ولم يقتنعوا بذلك حتى مزجوا مسائل الديانة بكلام اليونان، وجعلوا كلام الفلاسفة أصلاً يردون إليه ما خالفه من الآثار بالتأويل ولو كان مستكرهًا، ثم لم يكتفوا بذلك حتى زعموا أن الذي رتبوه هو أشرف العلوم وأولاها بالتحصيل، وأن من لم يستعمل ما اصطلحوا عليه فهو عامي جاهل، فالسعيد من تمسك بما كان عليه السلف، واجتنب ما أحدثه الخلف». (فتح الباري ٣/٢٥٣).

> يجب أن يعتقد المسلم أن نصوص الوحيين الصحيحة والصريحة في دلالتها، لا يعارضها شيء من المعقولات الصريحة، وأنه لا يوجد قط في الشريعة ما يرده العقل، بل العقل الصريح يسلم للنقل الصحيح.

الضابط الثالث: دفع التعارض بين صحيح المنقول وصريح المعقول:

من المقطوع به في شريعة الإسلام أنه لا تعارض بين منقول صحيح وبين معقول صريح، وعليه أقول: يجب أن يعتقد المسلم أن نصوص الوحيين الصحيحة والصريحة في دلالتها، لا يعارضها شيء من المعقولات الصريحة، وأنه لا يوجد قط في الشريعة ما يرده العقل، بل العقل الصريح يسلم للنقل الصحيح، وذلك لأن العقل من خلق الله، والنقل أمر الله، فلا يتعارضان أبدًا.

شأن الراسخين تصور الشريعة صورة واحدة يخدم بعضها بعضًا، كأعضاء الإنسان إذا صورت صورة متحدة، وشأن متبعي المتشابهات أخذ دليل ما- أي دليل كان- عفوًا وأخذًا أوليًا، وإن كان ثم ما يعارضه من كلي أو جزئي.

يقول ابن تيمية رحمه الله: «ومما يجب أن يعرف أن دلالة الحق لا تتناقض، فلا يجوز إذا أخبر الله بشيء- سواء كان الخبر إثباتًا أو نفيًا- أن يكون في إخباره ما يناقض ذلك الخبر المعقول، فالأدلة المقتضية للعلم لا يجوز أن تتناقض، سواء كان الدليلان سمعيين أو عقليين، أو كان أحدهما سمعيًا والآخر عقليًا، ولكن التناقض قد يكون فيما يظنه بعض الناس دليلاً وليس بدليل، كمن يسمع خبرًا فيظنه صحيحًا ولا يكون كذلك، أو يفهم منه ما لا يدل عليه، أو تقوم عنده شبهة يظنها دليلاً عقليًا، وتكون باطلة التبس عليه فيها الحق بالباطل». (مجموع الفتاوى ٥١٤/٦).

وابن تيمية بكلامه السابق يقرر القاعدة التي أتحدث عنها هنا، وهي نفي التعارض بين العقل والنقل، وإذا ظهر ما يوهم التعارض فلا يخلو الأمر من احتمالين: إما أن يكون النقل غير صحيح، أو يكون العقل فاسدًا غير صحيح.

ويفصل هذه المسألة بوضوح الدكتور/ علي حسن عثمان فيقول: «والمقصود هو بيان أنه إذا ظهر تعارض بين الدليل النقلي والدليل العقلي فلا بد من أحد ثلاثة احتمالات: الأول: أن يكون أحد الدليلين قطعيًا والآخر ظنيًا، فيجب تقديم القطعي نقليًا كان أم عقليًا، الثاني: أن يكون أحد الدليلين فاسدًا، فالواجب تقديم الدليل الصحيح على الفاسد سواء كان نقليًا أم عقليًا.

الثالث: أن يكون أحد الدليلين صريحًا والآخر ليس بذلك، فهنا يجب تقديم الدلالة الصريحة على الدلالة الخفية، لكن قد يخفى من وجوه الدلالات عند بعض الناس ما قد يكون بينًا واضحًا عند البعض الآخر، فلا تعارض في نفس الأمر عندئذ، أما أن يكون الدليلان قطعيين- سندًا ومتنًا- ثم يتعارضان، فهذا لا يكون أبدًا، لا بين نقليين، ولا بين عقليين، ولا بين نقلي وعقلي». (منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد ٣٦٦/١).

الضابط الرابع: جمع النصوص في الباب الواحد:

إن من أسباب انحراف فرق الضلال عن الحق بتر النصوص، والعمل ببعضها دون بعض، والشريعة جاءت كلية في أحكامها، ولذلك ينبغي الجمع بين الأدلة، وردُّ ما اشتبه منها إلى ما ظهر، وتقييد مطلقها بمقيدها، وتخصيص عامها بخاصها وهكذا، أما أن يؤخذ ببعض الأدلة، ويُطرح البعض الآخر، ومن هذا القبيل جمع روايات الحديث الواحد والنظر في أسانيدها ومتونها معًا.

يقول الإمام أحمد رحمه الله: «والحديث إذا لم تجمع طرقه لم تفهمه، والحديث يفسر بعضه بعضًا». (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب ٢١٢/٢).

وقال الشاطبي رحمه الله: «ومدار الغلط في هذا الفصل إنما هو على حرف واحد، وهو الجهل بمقاصد الشرع، وعدم ضم أطرافه بعضها إلى بعض، فإن مآخذ الأدلة عند الأئمة الراسخين إنما هي أن تُؤخذ الشريعة كالصورة الواحدة بحسب ما ثبت من كلياتها وجزئياتها المرتبة عليها، وعامَها المرتب على خاصها، ومطلقها المحمول على مقيدها، ومجملها المفسر بمبينها، والشريعة لا يطلب منها الحكم على حقيقة الاستنباط إلا بجملتها، وشأن الراسخين تصور الشريعة صورة واحدة يخدم بعضها بعضًا، كأعضاء الإنسان إذا صورت صورة متحدة، وشأن متبعي المتشابهات أخذ دليل ما- أي دليل كان- عفوًا وأخذًا أوليًا، وإن كان ثم ما يعارضه من كلي أو جزئي». (الاعتصام ٣١٧/١، ٣١٨).

وللحديث صلة إن شاء الله وقدر، والحمد لله رب العالمين.

كلمة التحرير

أنصار السنة في الميزان

بقلم
رئيس التحرير
جمال سعد حاتم

GSHATEM@HOTMAIL.COM
GSHATEM@HYAHOO.COM

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فبينما كنتُ أستعد لكتابة كلمة التحرير حول شهر شعبان بين المشروع والممنوع، وما يقع في هذا الشهر من الخصوصية التي اختص بها، وفضله على غيره من الشهور؛ استوقفني حوار أجراه الأمين العام لجماعة أنصار السنة؛ الدكتور مرزوق محمد مرزوق مع جريدة الوطن المصرية، دار حول ما يعرفه الكثير من أبناء الجماعة، لكنه قد يغيب عن البعض في مصر وخارجها حول أنصار السنة ودعوتها ومنهجها.

أنصار السنة في الميزان

إن أنصار السنة كانت ومازالت منذ نشأتها على يد مؤسسها الأول الشيخ محمد حامد الفقي - رحمه الله- جمعية إسلامية دعوية تقوم على الدعوة إلى توحيد الله عز وجل، واتباع السنة الصحيحة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهي جمعية رسمية مشهرة تشرف عليها الجهات المختصة بالدولة.

تعنى بتوضيح معنى السلفية المفترى عليها، حتى أصبحت تهمة في وقت يلصق فيه البعض التهم للآخرين، فالسلفية التي تتبناها أنصار السنة هي اتباع النصوص الشرعية من كتاب الله والسنة الصحيحة، وفهم هذه النصوص فهمًا وسطيًا، ثم تطبيقه تطبيقًا صحيحًا، وأن كل من اعتقد المنهج الصحيح فهو من أنصار السنة، وإن لم ينتظم في إدارتها، والكثير مما ينبغي أن يعرفه الناس عن أنصار السنة ودعوتها من خلال الحوار التالي:

قال الدكتور مرزوق، الأمين العام لجمعية أنصار السنة المحمدية، أقدم جمعية دعوية سلفية في مصر والعالم: إن «أنصار السنة» جماعة تلتزم المنهج السلفي في دعوتها، أسسها وعمل بها شيوخ وعلماء من الأزهر الشريف، على رأسهم الشيخ حامد الفقي مؤسس «أنصار السنة»، لافتًا إلى أن الجماعة علاقتها بالسعودية علاقة مودة ومحبة، وأنها لم تتأثر بالفكر الوهابي؛ بل على العكس، درَّس عددٌ كبير من شيوخ وقيادات أنصار السنة في السعودية.

وأكد مرزوق في حواره لجريدة «الوطن»، أن «أنصار السنة» جماعة دعوية لا علاقة لها بالسياسة والمشاركة السياسية من قريب أو بعيد، ولها ما يقرب من ٣٠٠ فرع في مصر، ولها امتدادات في دول أخرى مثل السودان.

- هل من الممكن إعطاء نبذة تاريخية مختصرة عن إنشاء جمعية أنصار السنة المحمدية؟

لا يمكن الكلام عن كيان وفهمه فهمًا صحيحًا بغير معرفة أصوله، ومعرفة الأصول توفر كثيرًا من الوقت، وجماعة أنصار السنة المحمدية: جماعة إسلامية دعوية أساسها الدعوة إلى الإسلام على أساس من توحيد الله عز وجل واتباع السنة الصحيحة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك بالحكمة والموعظة الحسنة واللين واتباع أيسر الطرق للوصول إلى ذلك، وهي جمعية رسمية مشهرة تشرف عليها الجهات المعنية والمختصة بالإشراف على الجمعيات، فعمل هذه الجمعية هو امتداد لعمل مؤسسات الدولة الرسمية، والتي تخصصت في مثل أهداف هذه الجمعية، لذا فالجمعية وما تملكه يعد ملكًا للدولة وخادمًا لأهدافها المشروعة من تحقيق النجاح والاستقرار وعبادة الله عز وجل.

- على يد من تأسست هذه الجماعة؟

في تاريخ «أنصار السنة» يوجد مؤسس أول وثان، فالمؤسس الأول الشيخ حامد الفقي، أحد علماء الأزهر الذي أسسها عام ١٩٢٦م بالقاهرة، بمشاركة الشيخ محمد عبدالوهاب البنا، والشيخ محمد صالح الشريف ، وحجازي فضل عبد الحميد، وغيرهم.

أما المؤسس الثاني هو فضيلة الشيخ رشاد الشافعي وذلك عام ١٩٧٢م؛ وذلك بإعادة إشهار الجماعة في عهد الرئيس الأسبق أنور السادات رحمه الله، وعلى ذلك فقد مر تأسيس الجماعة بمرحلتين كما هو معلوم.

- وما علاقة مؤسسة «أنصار السنة» بالأزهر، وما أسباب تأسيس الجمعية؟

الشيخ حامد الفقي مؤسس الجماعة من رجال الأزهر الشريف نشأ في بيت علم ودين، وكان والده زميلاً في الدراسة للشيخ محمد عبده رحمه الله، حصل على شهادة العالمية من الأزهر عام ١٩١٧م، أسس «أنصار السنة» في عام ١٩٢٦م، واختير رئيسا لها، وأسس مجلة الهدي النبوي؛ لتكون لسان حال الجماعة، المعبرة عن عقيدتها ودعوتها الوسطية، وتولى رئاسة تحريرها، وشارك في تحريرها مجموعة من العلماء المعروفين أمثال المحدث الأزهري الشيخ أحمد شاكر، والأستاذ محب الدين الخطيب، والشيخ محيي الدين عبدالحميد، وفضيلة الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق، وغيرهم، كما أنشأ مطبعة السنة المحمدية لنشر كتب السلف، وكان الشيخ الفقي يتمتع بعلاقات وأواصر متينة مع الأزهر وشيوخه وعلمائه.

- هل ظلت الجماعة الدعوية على نفس طريقة مؤسسها بعلاقتها بالأزهر؟

نعم ظلت على هذا، بل توطدت هذه العلاقة أكثر؛ فقد تولى رئاستها ومناصبها القيادية مجموعة من العلماء الأزاهرة البارزين أمثال: الشيخ عبد الرزاق عفيفي والشيخ عبد الرحمن الوكيل، والدكتور محمد خليل هراس، ورئيسها الحالي الدكتور عبد الله شاكر، أزهري، ونائبه المشرف العام على مجلة التوحيد لسان حال الجماعة، الدكتور عبدالعظيم بدوي من علماء الأزهر، وأحد كبار مديري وزارة الأوقاف.

- وماذا عن علاقة «أنصار السنة» بالمملكة العربية السعودية؟ وهل تأثرت الجماعة بالفكر الوهابي؟

علاقة «أنصار السنة» بالمملكة، علاقة التآخي والتقاء الأفكار، أساسها توحيد الله عز وجل، واتباع السنة، والدعوة إلى ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة، واتباع أيسر الطرق إلى ذلك، وهذا شأن الدعوات الصحيحة، بل هذا هو الإسلام، وهو ثابت لا يتغير، سواء في مصر أو في السعودية، أو في أي مكان وزمان، لذا فإن الالتقاء عليه لا يشترط تأثر أحد بالآخر.

لم تتأثر «أنصار السنة» بدعوة أخرى خارج البلاد، وإنما هي دعوة منبثقة من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على أيدي رجال مصريين أزاهرة.

والإسلام يخرج من مشكاة واحدة فلا فرق فيه بين قطر وآخر، وتوطدت العلاقات بين علماء «أنصار السنة» والسعودية، وبدأ التعاون العلمي عن طريق سفر علماء الجماعة للتدريس في المملكة، وبدعوات من علماء المملكة وحكامها الحريصين على دينهم ومستقبل بلدهم، ودَرَّسَ عددٌ من شيوخ وقيادات «أنصار السنة» في السعودية، بعضهم بطلب من مفتي السعودية وقتها الشيخ محمد ابن إبراهيم، مثل الشيخ عبد الرزاق عفيفي، والدكتور محمد خليل هراس، وقد ذَهَـبَـا

إلى السعودية للتدريس بدار التوحيد بالطائف، ثم للتدريس بكلية الشريعة بالرياض، كما أصبح «عفيفي» مديرًا للمعهد العالي للقضاء، وشارك في اللجان المتخصصة لوضع مناهج التعليم في المملكة، وعمل نائبًا لرئيس اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالسعودية، وكان عضوًا في مجلس كبار العلماء هناك.

وتخرج على يديه جيل من علماء السعودية المعروفين مثل، الشيخ عبد الله بن جبرين، الشيخ صالح اللحيدان، والشيخ عبد الله بن حسن بن قعود، والشيخ عبد العزيز آل الشيخ، والشيخ عبد الله بن غديان، والشيخ صالح السدلان، والدكتور صالح الفوزان، والدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، والشيخ مناع القطان، والرئيس الحالي لشؤون الحرمين الدكتور عبد الرحمن السديس إمام المسجد الحرام وغيرهم.

كما أن عددا آخر من علماء وقيادات أنصار السنة درّسوا في السعودية، مثل الشيخ محمد عبد الظاهر أبو السمح، الذي كان إمامًا للمسجد الحرام، والشيخ محمود عبدالظاهر أبو السمح، إمام المسجد الحرام أيضا بعد أخيه رحمهما الله، والشيخ عبدالرزاق حمزة، وكان إمامًا للمسجد النبوي.

< فما ردكم على من يقول أنصار السنة تتبنى الفكر الوهابي؟

>> هل إذا استعانت السعودية بعلماء الأزهر للتدريس فيها يدل ذلك على أن الأزهر امتداد للوهابية، وهل مشايخ الأزهر الذين انتُدبوا للتدريس في المملكة كشيخ الأزهر السابق الدكتور سيد طنطاوي، رحمه الله يعد انتدابهم هذا دليلا على تبني الفكر الوهابي؟!

ثم ما معنى الفكر الوهابي الذي يتهم به علماء المملكة؟! إن كان المقصود به اتباع كتاب الله وسنة رسول الله والدعوة إليهما بالحكمة والموعظة الحسنة، فهذا هو الإسلام، وهو ما يدعو إليه الأزهر وشيوخه، أما إن كان المراد من هذا الاتهام أن ينحرف الدعاة عن هذا المنهج فهذا شيء لا نعرفه.

< هل تمثل أنصار السنة المحمدية أول وجود سلفي في مصر؟

>> دعني أولاً أوضح معنى السلفية حتى لا تصبح تهمة في وقت يتصيد الناس فيه التهم لغيرهم، فالسلفية التي تتبناها «أنصار السنة»: اتباع النصوص الشرعية من كتاب الله والصحيح من السنة، وفهم هذه النصوص فهمًا وسطيًّا صحيحًا، ثم تطبيقه تطبيقًا صحيحًا، ثم الدعوة إلى ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة، واتباع أيسر الطرق الشرعية لتحقيق ذلك، ونشأت الجماعة كدعوة منظمة، فهي الأولى في ذلك.

< من هم أهم شيوخ الدعوة السلفية الذين تلقوا العلم في أنصار السنة؟

>> هذه لا أعلمها على وجه التحديد، فجمعيتنا قديمة المنشأ كما ذكرت، وأنا في الحقيقة لا أحب مثل هذه التقسيمات فنحن كأبناء لأنصار السنة لا ندّعي أننا تلقينا العلم في أنصار السنة فقط، بل وفي الأزهر أيضًا، فهكذا تتداخل الثقافات، والدين واحد سواء في أنصار السنة أو في غيرها، ونحن لا ندّعي الفضل على غيرنا، ولا نحب هذه التقسيمات التي تقول: إن هذا من أنصار السنة، وهذا لا، بل نحن نعتقد أنّ هذه تقسيمات تؤدي إلى تفكك المجتمع، فنحن نعتقد أن كل مسلم يسير على هذا المنهج الذي أسلفت ذكره من أنصار السنة، وأنصار السنة منه، أما إن كان المقصد بالمنتمين لأنصار السنة هو التقسيم الإداري الذي تشرف عليه الدولة فهذا لا بأس به على وجه الالتزام بالقوانين المنظمة للعمل بالدولة، وإلا فأنا أحب أن يسمى كل المسلمين بما سماهم الله به في كتابه «هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ ...» (الحج: ٧٨).

< بعض الجماعات الجهادية تنسب نفسها إلى السلفية كداعش وغيرها، فما الفرق بين سلفية هذه التيارات وبين منهج جمعيتكم؟

>> إن تسمح لي في تعديل صيغة السؤال قليلاً، فنقول: ما الفرق بينهم وبين المنهج الإسلامي الوسطي الذي تسير عليه جمعيتكم؟ لأن في الحقيقة منهجنا ليس خاصًا بنا، بل هو منهج نبوي مبني على الكتاب والسنة يلزمنا ويلزم كل مسلم متبع لرسوله صلى الله عليه وسلم، وكل من خالف الكتاب والسنة فقد انحرف عن المنهج السلفي الصحيح، وهذه قاعدة عامة وبصرف النظر عن المسميات الكثيرة التي انتشرت على الساحة الإسلامية في الأيام المتأخرة، والحكم عليهم يجب أن يكون بعرضه على المنهج الحق، فمن وافقه فهو من أهله، ومن خالفه فليس من أهله، فكما قالوا: (اعرف الحق تعرف أهله).

ولعل هذه القاعدة تريح من أسئلة كثيرة تدور في أذهاننا عن الفرق بين أنصار السنة وجميع التيارات السلفية الحركية والسياسية، وغيرها من الأسماء المتعددة المنتشرة الآن، فنقول عموما: جمعيتنا

جمعية دعوية لا علاقة لها بالمشاركات السياسية ولا تحسنها، بل ولا وقت عندها لذلك، ودعوتها هي المسلك الصحيح لأهل الدعوات، وكل من انتهج نهجًا غير هذا لم يَتَبَنَّ منهجنا ولا طريقتنا في الدعوة التي نسير عليها.

ونحن إنما نوافق الناس ونحبهم على قدر اتباعهم للسنة، وننصحهم بالحكمة التي هي أحسن إذا خالفوا ذلك، ولا ننصب أنفسنا حكامًا في الحكم على الناس، ولا ننقب وراءهم، ولا نكلف أنفسنا بما لم يكلفنا الله به، ولا نرى من أنفسنا أننا أفضل من غيرنا، بل كل ما نراه أن الله مَنَّ علينا بمنهج صحيح لاتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم والدعوة إلى الله.

« ذكرتم أنكم لا تنصبون أنفسكم حكاما على الناس لكننا نرى من بعض من ينتسب إلى أنصار السنة من يتبنى قضية الحكم على الناس، بل يعتبرها قضية أساسية، فماذا عن هذا؟

»» إنني عندما أتكلم، أتكلم عن منهج للجمعية تسير عليه ولا أتكلم عن أشخاص، فنحن نقرر الحق الذي نعتقده ونتبناه منهجا للجمعية، فمن وافقه فجزاه الله خيرا، ومن خالفه فنسأل الله لنا وله الهداية، ولا ينسب منهجه إلا إلى نفسه، فليس من العدل أن يخطئ ويسيء الفهم، ثم ينسب هذا إلى جماعة بأسرها منهجها واضح ومعلن للقاصي والداني.

وأقول: إن من يتقرب إلى الله بجرحه وتعديله للناس فإننا نقول له: إن الجرح والتعديل علم قائم إلى قيام الساعة، بل وهو من مفاخر هذه الأمة المباركة، ولكن له رجاله، وله مواضعه، وله ضوابطه، فليس متروكا هكذا ليقع الناس في أعراض غيرهم، وينشرون عيوبهم، ويهتكون أستارهم في الوقت الذي يغفلون فيه عن عيوب أنفسهم، فيكلفون أنفسهم بما لم يكلفهم الله به، فنحن نذكر أنفسنا وإياهم بقول الله تعالى: «وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا» (النساء: ٦٦).

« التيار السلفي عمومًا في مصر تيار دعوي فهل تراه حقق أهدافه الدعوية أم أخفق؟ وما السبب؟

»» نعم التيار السلفي وبمفهوم السلفية التي عرفناها وتتبناها هو تيار دعوي، ومن حاد عنه فقد حاد عن السلفية الصحيحة من وجهة نظري، ويحقق نجاحا في أهدافه على قدر تحقيقه لمنهجه الخالص بعد تقدير الله والإخلاص له، ويخفق ويفشل على قدر مخالفته للمنهج وبعده عنه، وكل ذلك أيضا بعد تقدير الله سبحانه وتعالى، ونسأل الله أن يستعملنا ولا يستبدلنا.

« هذا بخصوص التيارات السلفية عموما فماذا عن أنصار السنة خاصة من حيث انتشارها وأنشطتها؟

»» أنصار السنة جمعية دعوية انتشرت في مصر وامتدت إلى خارجها كالسودان مثلاً، ولكنها ليست تنظيما دوليًا، فالتقاء هذه الجمعيات في الدول المختلفة هو التقاء على المنهج، وكل من اعتقد المنهج الصحيح فهو من أنصار السنة، وإن لم ينتظم في إداراتها، فالإدارات مجرد مسائل شكلية تنظيمية.

وأما عن انتشار الجمعية في مصر فالحمد لله وصل عدد الفروع إلى ما يقارب الثلاثمائة فرع على مستوى الجمهورية، ولو أننا تركنا الحبل على الغارب لوصلنا إلى أضعاف هذا، لكننا نشدد ونجتهد على قدر المستطاع في اختيار أعضاء الفروع في المرة الأولى للإشهار، وحين ذلك نعطيهم موافقتنا اللازمة لإشهار الفرع، ثم نحاول بعد ذلك التواصل معهم على قدر وسعنا ونصيحتهم على قدر قبولهم منا، وندعو لأنفسنا ولهم بالثبات على الحق والمعونة عليه، والحمد لله كان من ثمرة هذا أن الجمعية تشرف على آلاف المساجد تحت إشراف وتوجيه وزارة الأوقاف واضعة نصب أعينها الضوابط الشرعية والقانونية التي حددتها الدولة لإدارة مثل هذه الأعمال.

هذا، وينضاف إلى نشاط الجمعية النشاط الخيري، فالجمعية تعيش واقع الناس وأحوالهم، وتقتنع تمامًا أن الإنسان لا يقوى على عبادة ربه إلا وهو آمن مطمئن مستقر، ولذا فإن الجمعية تسعى لمعاونة الناس على ذلك على قدر وسعها، فنحن في النهاية جمعية خيرية تقوم على جهود أهل الخير من داخل بلدنا الكريم ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

« كيف ترى مستقبل جمعية أنصار السنة في مصر؟

»» مستقبلها في مصر هو من مستقبل بلدنا الذي نعيش عليه بأرواحنا، ويعيش هو في وجداننا، فنجاحنا من نجاحه، ولا قدر الله ضررنا من إلحاقه بالضرر، لذا كما ندعو الناس إلى توحيد ربهم، فإننا ندعوهم إلى العمل على إنجاح بلدهم، والمحافظة عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الزخرف

الحلقة الرابعة

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

قال الله تعالى: « وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥) » **(الزخرف: ٣٥- ٤٥).**

من أعرض عن القرآن تسلط عليه الشيطان:

« وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ »:

يَقُولُ تَعَالَى: «وَمَنْ يَعْشُ» أَيْ يَتَعَامَى وَيَتَغَافَلُ وَيُعْرِضُ «عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ»: وَهُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » (الحجر: ٩)، وَأَضَافَ اللهُ تَعَالَى الذِّكْرَ إِلَى اسْمِهِ الرَّحْمَنِ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الأَسْمَاءِ لِلدَّلالَةِ عَلَى أَنَّ نُزُولَ الْقُرْآنِ رَحْمَةٌ مِنَ اللهِ بِعِبَادِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: « الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ » (الرحمن: ١- ٢)، وَقَالَ تَعَالَى: « حم (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ » (فصلت: ١- ٢).

وَالْعَشَا فِي الْعَيْنِ ضَعْفُ بَصَرِهَا، وَالْمُرَادُ هَاهُنَا عَشَا الْبَصِيرَةِ، « وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ » يُعَاقِبُهُ اللهُ تَعَالَى فَيُسَلِّطُ عَلَيْهِ

الشَّيَاطِينَ، فَتَؤُزُّهُ إِلَى الْمَعْصِيَةِ، وَتُحَبِّبُ إِلَيْهِ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، وَتُكَرِّهُ إِلَيْهِ الْهُدَى وَالْقُرْآنَ وَالْإِيمَانَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» لا يُفَارِقُهُ وَلا يُغَادِرُهُ، كَأَنَّهُمَا قُرِنَا فِي حَبْلٍ، «وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا» (النساء: ٣٨)، فَهُوَ يَأْمُرُهُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَيَصُدُّهُ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ، وَيُزَيِّنُ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَيَرَاهُ حَسَنًا، فَيَسْتَمْسِكُ بِهِ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: «وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ»، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ» (الأعراف: ٣٠)، وَمِثْلُ هَذَا لا يُمْكِنُ أَنْ يَرْجِعَ عَنِ الضَّلالَةِ إِلَى الْهُدَى، كَيْفَ وَهُوَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ عَلَى الْهُدَى! كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ» (البقرة: ١٢- ١٣)، «أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» (البقرة: ١٦)، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا» (الكهف: ١٠٣- ١٠٦).

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى تَبَرُّؤَ الشَّيْطَانِ مِنْ أَوْلِيَائِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ: «حَتَّى إِذَا جَاءَنَا» ذَلِكَ الْإِنْسِيُّ الَّذِي أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقُرِئَتْ بِأَلِفِ الاثْنَيْنِ: جَاءَانَا، يَعْنِي الْإِنْسِيَّ وَالْقَرِينَ الْجِنِّيَّ، «قَالَ» الْإِنْسِيُّ لِقَرِينِهِ: «يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ» أَيِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، أَطْلَقَ عَلَيْهِمَا الْمَشْرِقَيْنِ مِنْ بَابِ التَّغْلِيبِ، كَمَا يُقَالُ: الْعُمَرَانِ، وَالْقَمَرَانِ، وَالْأَبَوَانِ، وَالْمُرَادُ أَنَّ الَّذِي أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ لَمَّا بُعِثَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَيْقَنَ بِالْبَوَارِ، نَدِمَ عَلَى وَلايَةِ الشَّيْطَانِ، وَتَمَنَّى أَنْ لَوْ بَاعَدَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ كَمَا بَاعَدَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ مَنْ آثَرَ صُحْبَةَ غَيْرِ رَسُولِ اللهِ، يَنْدَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلا يَنْفَعُهُ النَّدَمُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا» (الفرقان: ٢٧- ٢٩)، وَقَالَ تَعَالَى: «إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا» (الأحزاب: ٦٤- ٦٨).

وَإِذَا كَانَ الْإِنْسِيُّ سَيَتَبَرَّأُ مِنْ قَرِينِهِ مِنَ الْجِنِّ، فَإِنَّ الْقَرِينَ أَيْضًا سَيَتَبَرَّأُ مِنَ الْإِنْسِيِّ، حِينَ يَسْمَعُ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى: «أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) ۞ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ» (ق: ٢٤- ٢٩)، وَسَيَتَبَرَّأُ إِبْلِيسُ مِنَ الْجَمِيعِ إِذَا أُلْقُوا فِي النَّارِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (إبراهيم: ٢٢).

«وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ»:

قُرِئَتْ «أَنَّكُمْ» بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَكَسْرِهَا، فَعَلَى الْفَتْحِ يَكُونُ الْمَعْنَى: لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ اشْتِرَاكُكُمْ فِي الْعَذَابِ، لأَنَّهُ كَمَا يُقَالُ: الْمُصِيبَةُ إِذَا عَمَّتْ هَانَتْ وَخَفَّتْ، كَمَا قَالَتِ الْخَنْسَاءُ فِي أَخِيهَا:

ولولا كثرة الباكين حولي
على إخوانهم لقتلت نفسي

لَكِنَّ اشْتِرَاكَ الظَّالِمِينَ فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ لَنْ يُخَفِّفَ عَنْهُمْ أَلَمَ الْعَذَابِ، لأَنَّ كُلًّا مِنْهُمْ مَشْغُولٌ بِنَفْسِهِ عَمَّنْ مَعَهُ، فَكَأَنَّهُ لَيْسَ مَعَهُ،

وَلَعَلَّ هَذا هو السِّرُّ في ذِكْرِ خُلُودِ أَهْلِ الْجَنَّة بلفظ الجمْع، وخُلُود أَهْل النّار بالإفراد، في قَوْله تعَالَى: « تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ » (النساء: ١٣- ١٤)، فأهلُ الجنَّة يأنس بَعْضُهُمْ ببعض، ويُحدِّثُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، ويُكْرِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فانْتَفعُوا باشْتراكِهِمْ في النَّعيم، وأمَّا أهْلُ النّار فكُلٌّ منْهُمْ مَشْغُولٌ عَن الآخرين بما هُوَ فيه منَ العَذاب المُهين، فَلَمْ يَنْتَفعُوا باجْتماعهم.

وَعلى قراءةِ الكَسْر، يكُونُ الوَقْفُ عَلى: «إذ ظَلَمْتُم»، ثُمَّ يُسْتأنف «أنَّكُمْ في العَذاب مُشْتَركُونَ»، وَيكُونُ المَعْنَى: وَلَن يَنْفَعَكُمُ اليَوْمَ النَّدَمُ، وَتبرُّؤُ بَعْضِكُمْ منْ بَعْض، وقَدْ تَمَّ المَعْنَى، ثُمَّ تَكُونُ الجُمْلَةُ الآتيَةُ إعْلامًا لَهُمْ أَنَّهُمْ جَميعًا الإنسيَّ وَالقَرِينَ في النَّار.

وَلَقَدْ كَانَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم حَريصًا عَلَى هدَايَة قَوْمه، وَكانَ يَحْزَنُ لإعْراضهمْ عَنِ الذِّكْر، فَنَهَاهُ الله تعالى عَن الحُزْن عَلَيْهمْ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُهَوِّنَ عَلَى نَفْسه، فالهُدَى هُدَى الله، « مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ » (الأنعام: ٣٩).

قَالَ تعالَى: «أَفأنتَ تُسْمعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدي العُمْيَ وَمَن كَانَ في ضَلالٍ مُّبِينٍ»:

يَعْني أَنَّ القَوْمَ صُمٌّ لا يَسْمَعُونَ، عُمْيٌ لا يُبْصِرُونَ، وَلَمْ يَخْلُقْهُمُ الله تَعالَى صُمًّا وَعُمْيًا، بلْ جَعَلَ لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصارًا وَأَفْئدَةً، كَما قالَ تَعالَى: « إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا » (الإنسان: ٢)، وقالَ تعالَى: « وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (النحل: ٧٨)، فَتَسْتَعْمِلُوا هذه الحَوَاسَّ في التَّعَرُّف عَلَيْه سُبْحَانَهُ، بالتَّأَمُّل في آياته المَسْطُورَة في المَصَاحف، وَالمَنْظُورَة في الآفاق، فَتَعْلَمُوا أَنَّهُ الإلهُ الحَقُّ الَّذي يَسْتَحقُّ العبَادَةَ وَحْدَهُ. وَلَكنَّ القَوْمَ عَطَّلُوا هذه الحَوَاسَّ عَمَّا خُلقَتْ لَهُ، فَطَبَعَ الله عَلَيْهَا، فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ، وَلذلكَ قالَ تَعالَى: « وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ » (الأعراف: ١٧٩).

فإذا هُمْ عَطَّلُوا جَوارحَهُمْ، وَطَمَسُوا مَنافذَ قُلُوبهمْ وَأَرْواحهم، فَمَا للرَّسُول إلى هُدَاهُمْ منْ سَبيل، وَلا عَلَيْه منْ ضَلالهمْ، فَقَدْ قامَ بواجبه الَّذي يُطيقُ، وَالله يَتَوَلَّى الأَمْرَ بَعْدَ أَداءِ الرَّسُول لوَاجبه المَحْدُود، « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ » (فاطر: ٨)، « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ » (آل عمران: ٢٠) وَقَدْ فَعَلْتَ، و« بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ » (البقرة: ٢٧٢).

وَقَدْ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلمَةُ العَذاب بالإعْراض عَنْكَ وَعَمَّا جِئْتَهُمْ به، فَاصْبرْ حَتَّى يَأْتيَ الله بأَمْره: « **فإمَّا نَذْهبَنَّ بك فإنَّا منهم مُنتقمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ**»:

يَقُولُ تَعالَى لنَبيّه صلى الله عليه وسلم: إنَّ قَوْمَكَ قَدْ اسْتَحَقُّوا العَذابَ بتَكْذيبهمْ لَكَ، وَإنَّ لَهُمْ مَوْعدًا لَنْ يَفُوتُوهُ، فَقَدْ تَمُوتُ قَبْلَ أَنْ يَحلَّ بهمُ العَذَابُ، وَقَدْ تَراهُ، كَما قالَ تَعالَى: « وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ » (يونس: ٤٦)، وقالَ تَعالَى: « وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ » (المؤمنون: ٩٥)، وَقَدْ صَدَقَ الله وَعْدَهُ، فَمَكَّنَ رَسُولَهُ صلى الله عليه وسلم منْهُمْ يَوْمَ بَدْر، وَعَذَّبَهُمُ الله عَلى أَيْدي عباده المُؤْمنين، « وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ » (البقرة: ٨٥).

وَلَمَّا هَوَّنَ الله عَلَى رَسُوله صلى الله عليه وسلم مَا يُلاقيه منْ شدَّة الحرْص عَلى إيمَانهمْ وَوَعَدَهُ النَّصْرَ عَلَيْهمْ، فَرَّعَ عَلَى ذَلكَ أَنْ أَمَرَهُ بالثَّبات عَلى دينه وكتَابه، وَأَنْ لا يَخُورَ عَزْمُهُ في الدَّعْوَة ضَجَرًا منْ تَصَلُّبهمْ في كُفْرهم وَنُفُورهمْ منَ الحَق، فَقَالَ تَعالَى:

«فَاسْتَمْسكْ بالَّذي أُوحيَ إلَيْكَ»:

وَالاسْتمْسَاكُ: شدَّةُ المَسْك، فَالسّينُ وَالتَّاءُ فيه للتَّأْكيد، فَهُوَ أَمْرٌ منَ الله لرَسُوله صلى الله

عليه وسلم بالثَّبات عَلى مَا هُوَ عَلَيْه مِنَ الدِّين الَّذي أُوحيَ إِلَيْه مِنْ رَبِّه، وَإِنْ كَذَّبَهُ أَكْثَر النَّاس وَخَالَفُوهُ، «إِنَّكَ عَلَى صِرَاط مُسْتَقيم»، وَهَذه شَهَادَةُ الله لرَسُوله: «وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا» (الفتح: ٢٨)، وَفي هَذا الْخَبَر بَعْدَ ذَلكَ الأَمْر إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مَن اسْتَمْسَكَ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيم فَهُوَ عَلَى صِرَاط مُسْتَقيم، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَهُوَ في ضَلَال مُبين، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ» (القصص: ٥٠)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ» (المؤمنون: ٧٤).

«وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ» يَعْني أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ شَرَفٌ للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وَلقَوْمه، أَمَّا كَوْنُهُ ذكْرًا للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فَإِنَّهُ مُنْذُ أُنْزِلَ عَلَيْه الْقُرْآنُ لا يُذْكَرُ اللهُ إِلَّا ذُكرَ مَعَهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله، وَلا يُذْكَرُ النَّبيُّ وَحْدَهُ إِلَّا صَلَّى عَلَيْه الذَّاكرُ، وَمَا زَالَت الْقُلُوبُ تَحنُّ إِلَيْه شَوْقًا، وَتَشْتَاقُ إِلَى رُؤْيَته، وَيَتَمَنَّى الْمُسْلمُ أَنْ لَوْ فَدَى رَسُولَ الله بنَفْسه وَأَهْله، وَمَاله وَوَلَده، وَهَذَا كُلُّهُ بِبَرَكَة الْقُرْآن الْكَرِيم.

وَأَمَّا كَوْنُ الْقُرْآنِ الْكَرِيم ذكْرًا لقَوْمه فَإِنَّ الْعَرَبَ قَبْلَ الْقُرْآن لَمْ يَكُنْ لَهُمْ ذكْرٌ، وَلَمْ يَكُونُوا في الْعير وَلا في النَّفير، وَكَانُوا في مُؤَخِّرَة الرَّكْب، فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ وَآمَنُوا به وَاتَّبَعُوهُ رَفَعَ اللهُ ذكْرَهُمْ، وَمَكَّنَ لَهُمْ في الأَرْض، وَفَتَحَ لَهُمُ الْبلَادَ، وَجَاءَتْهُمْ كُنُوزُ كسْرَى وَقَيْصَر، وَصَارُوا في الطَّليعَة وَالْمُقَدِّمَة، يُحْسَبُ لَهُمْ أَلْفُ حسَاب وَحسَاب.

فَكَانَ نُزُولُ الْقُرْآن الْكَرِيم نعْمَةً عَظيمَةً عَلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وَمَن اتَّبَعَهُ، وَلذَلكَ قَالَ تَعَالَى: «وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ» يَعْني يَوْمَ الْقيَامَة عَنْ هَذه النِّعْمَة، هَلْ شَكَرْتُمْ أَمْ لا؟ هَل اسْتَمْسَكْتُمْ بِالْقُرْآن أَمْ لا؟

«وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ»:

لَمَّا دَعَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم قَوْمَهُ إِلَى تَوْحيد الله أَنْكَرُوا عَلَيْه هَذه الدَّعْوَة، وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا بِمِثْلِهَا عنْدَ أَهْل الدِّيَانَات، «وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ» (ص: ٤ - ٧)، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى لنَبيِّه صلى الله عليه وسلم إِنَّ التَّوْحيدَ هُوَ دَعْوَةُ جَميع الْمُرْسَلينَ: «وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا من قَبْلكَ من رُسُلنَا أَجَعَلْنَا من دُون الرَّحْمَن آلهَةً يُعْبَدُونَ» وَالْمُرَادُ اسْأَلْ مُؤْمني أَهْل الْكتَاب، الَّذينَ آمَنُوا بالله وَاتَّبَعُوا الْمُرْسَلينَ، فَسَيُخْبرُونَكَ بِأَنَّ رُسُلَهُمْ أَمَرُوهُمْ بِتَوْحيد الله، وَنَهَوْهُمْ عَن الشِّرْك به.

فَإِنْ قيلَ: وَكَيْفَ يَكُونُ قَوْلُهُمْ حُجَّةً؟

فَالْجَوَابُ: إِنَّمَا كَانَ قَوْلُهُمْ حُجَّةً لأَنَّ الْمُؤْمنينَ لا يَكْذبُونَ عَلَى الله وَرُسُله. وَقَدْ صَرَّحَ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ بِأَنَّ التَّوْحيدَ هُوَ دَعْوَةُ الأَنْبيَاء وَالْمُرْسَلينَ، فَقَالَ: «وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ» (الأنبياء: ٢٥)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ» (النحل: ٣٦)، وَقَالَ تَعَالَى: «يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ» (النحل: ٢).

فَالتَّوْحيدُ هُوَ دَعْوَةُ جَميع الأَنْبيَاء وَالْمُرْسَلينَ، وَالنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم عَلَى أَثَرهمْ، مُقْتَد بهمْ، وَمُهْتَد بهَدْيهمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ» (الأنعام: ٩٠)، وَقَالَ تَعَالَى: «إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ» (النحل: ١٢٠ - ١٢٣).

فَرَسُولُ الله إِذًا مُتَّبعٌ لا مُبْتَدعٌ، وَالتَّوْحيدُ الَّذي جَاءَ به إِنَّمَا جَاءَ به مَنْ قَبْلَهُ منَ الرُّسُل، فَمَنْ خَالَفَهُ فَقَدْ خَالَفَ جَميعَ الْمُرْسَلينَ.

وللحديث بقية إن شاء الله،

والحمد لله رب العالمين.

ماذا تقول لربك غداً؟!

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على النبي المصطفى، وبعد: فنواصل بفضل الله وكرمه الحديث عن هذا اللقاء الصعب وأنت واقف في ساحة الحساب يسألك الملك عن حقوقه وحقوق خلقه والناس تريد أخذ حقها منك كاملا يوم القصاص، فماذا أنت فاعل؟!

الحلقة الثالثة

إعداد/ صلاح عبد الخالق

يوم القيامة هو يوم إعادة الحقوق لأصحابها:

- الحقوق التي لم يحصلوا عليها في الدنيا يوم العدل الأكبر قال تعالى: (ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ) (غافر: ١٧)، وفي هذا رسائل للمظلوم رسائل طمأنينة بأن حقك لن يضيع مهما طال الزمن لأن كل شيء مسجل بالصوت والصورة وبالشهود.

- قال تعالى: (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ) (المجادلة: ٦)،

ورسائل للظالم توقف عن ظلمك، وأعط الناس حقوقهم؛ لأنك لن تستطيع أن تفلت من عقاب الله العادل المنتقم.

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ، مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ» صحيح مسلم (٢٥٨٢).

- ففي هذا الحديث أقسم النبي صلى الله عليه وسلم -وهو الصادق المصدق بغير قسم- أقسم أن الحقوق ستؤدى إلى أهلها يوم القيامة ولا يضيع لأحد حق الحق الذي لك إن لم تستوفه في الدنيا استوفيته في الآخرة، حتى إنه يُقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء الجلحاء التي ليس لها قرن، والقرناء التي لها قرن والغالب أن التي لها قرن إذا ناطحت الجلحاء التي ليس لها قرن تؤذيها أكثر، فإذا كان يوم القيامة قضى الله بين هاتين الشاتين واقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء هذا وهن بهائم لا يعقلن ولا يفهمن، لكن الله عز وجل حكم عدل أراد أن يُري عباده كمال عدله حتى في البهائم العجم فكيف ببني آدم.

(شرح رياض الصالحين لابن عثيمين: ١/ ٢٤١).



كيف يأخذ الناس حقوقهم يوم القيامة؟

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ» مسلم (٢٥٨١).

- مَعْنَاهُ أَنَّ هَذَا حَقِيقَةُ الْمُفْلس، وَأَمَّا مَنْ لَيْسَ لَهُ مَال وَمَنْ قَلَّ مَاله، فَالنَّاس يُسَمُّونَهُ مُفْلِسًا، وَلَيْسَ هُوَ حَقِيقَة الْمُفْلس ؛ لأَنَّ هَذَا أَمْر يَزُول، وَيَنْقَطِع بِمَوْته، وَرُبَّمَا يَنْقَطِع بِيَسَار يَحْصُل لَهُ بَعْد ذَلِكَ فِي حَيَاته، وَإِنَّمَا حَقِيقَة الْمُفْلس هَذَا الْمَذْكُور فِي الْحَدِيث فَهُوَ الْهَالِك الْهَلَاك التَّامّ، وَالْمَعْدُوم الإِعْدَام الْمُقَطَّع، فَتُؤْخَذ حَسَنَاته لِغُرَمَائِهِ، فَإِذَا فَرَغَتْ حَسَنَاته أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتهمْ، فَوُضِعَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّار فَتَمَّتْ خَسَارَته وَهَلَاكه وَإِفْلَاسه. شرح النووي (٨/٣٨٨).

- إذا كان يوم القيامة كانت ثروة الإنسان ورأس ماله حسناته، قام بأعمال صالحة كثيرة وعظيمة من صلاة وصيام وزكاة وغيرها من الأعمال الصالحة التي لها حسنات أمثال الجبال الضخمة العالية البيضاء ، ومع هذا ظلم خلق الله تعالى حقوقهم وأذاهم وكل واحد من هؤلاء المظلومين يُريد حقه الذي لم يستطع أخذه في الدنيا يطلبه يوم القيامة منك أمام الملك الديان.

- قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ (الفرقان: ٢٣).

- عَنْ ثَوْبَانَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "لأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا؛ أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ؟ قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا". سنن ابن ماجه (٤٢٣٥) صحيح الجامع (٧١٧٤).

- فكل أنواع الايذاء تدخل في هذا الحديث.

- هذا الحديث يبين خطورة إيذاء الناس باللسان عن طريق السب والشتم والغيبة والنميمة والقذف، وانتهاك أعراض الناس، فيأتي:

١- «وقذف هذا» والقذف قد يكون أعم من معناه الشرعي مما يتعلق بالعرض، فيراد به القذف العام: وهو رمي الإنسان بما ليس فيه، أو يراد به القذف الخاص: وهو قذف العرض، وكلا المعنيين كثير بين الناس. دروس للشيخ سفر الحوالي (١٦/٤٨).



٢- وَيأْتي قَدْ شَتَمَ هَذَا: قد انتشر الشتم بين المسلمين انتشار النار في الهشيم خاصة بين الأطفال والشباب.

- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ» البخاري (٥٩٧٣).

فكل من آذيته بلسانك من سب أو قذف أو غيبة أو... يأخذ حقه حسناتك أو يُعطيك من سيئاته وأذية الناس باليد فمثلا:

١. ضَرَبَ هَذَا:

أ- عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم: «مَنْ ضَرَبَ بِسَوْطٍ ظُلْمًا اقْتُصَّ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». صحيح الجامع (٦٣٧٤) البخاري في الأدب المفرد (١٨٥).

- والذي يعتدي على غيره بالضرب، يقتص منه بالضرب في يوم القيامة. القيامة الكبرى (١/١٨٥).

ب- عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَجُلًا قَعَدَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي مَمْلُوكِينَ يُكَذِّبُونَنِي وَيَخُونُونَنِي وَيَعْصُونَنِي، وَأَشْتُمُهُمْ وَأَضْرِبُهُمْ فَكَيْفَ أَنَا مِنْهُمْ؟

قَالَ: «يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ وَكَذَّبُوكَ وَعِقَابُكَ إِيَّاهُمْ، فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافًا، لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلًا لَكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ اقْتُصَّ لَهُمْ مِنْكَ الْفَضْلُ». قَالَ: فَتَنَحَّى الرَّجُلُ فَجَعَلَ يَبْكِي وَيَهْتِفُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَمَا تَقْرَأُ كِتَابَ اللَّهِ «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ» الأنبياء: ٤٧". فَقَالَ الرَّجُلُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَجِدُ لِي

وَلَهُمْ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ مُفَارَقَتِهِمْ، أُشْهِدُكَ أَنَّهُمْ أَحْرَارٌ كُلُّهُمْ. (الترمذي (٣١٦٥) وصححه الألباني).

٢- أكلُ مَالِ هَذا بالباطل:

- بعض الناس لا يمنعه أن يأكل أموال المسلمين، وإن كانوا أيتاماً وغش في البيع والشراء، ويأخذ أموال الناس ولا يريد سدادها، والرشوة والسرقة، والتحايل والمعاملات المالية وفي ذلك حدث ولا حرج.

-قال تعالى: «وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» (المطففين: ١-٦).

- عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: " مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ دِينَارٌ أَوْ دِرْهَمٌ قُضِيَ مِنْ حَسَنَاتِهِ، لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ" سنن ابن ماجه (٢٤١٤)،صحيح الجامع (٦٥٤٦).

٣- سفك دم هذا:

احذر أخي المسلم يوم القيامة من تقتله في الدنيا لن يتركك في الآخرة، بل هو لك بالمرصاد يبحث عنك ويأخذك من رأسك ويقدمك للمحاكمة العادلة ليأخذ حقه من رصيدك أو يُعطيك من سيئاته.



ما الحل؟

التوبة الصادقة إلى الله تعالى:

قال تعالى: (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (النور: ٣١).

ومن أهم علاماتها إذا كانت في حق العباد عودة الحقوق إلى أصحابها سريعا اليوم قبل الغد لقوله صلى الله عليه وسلم، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ لأنك لا تدري متى يأتيك الموت، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ» البخاري (٢٤٤٩)، وقوله (من عرضه أو شيء) أي من الأشياء فيدخل فيه المال بأصنافه والجراحات حتى اللطمة ونحوها. فتح الباري (١٠١/٥).

أ- إن تعلق بها حق مالي كمنع الزكاة والغصب والجنايات في أموال الناس وجب مع ذلك تبرئة الذمة عنه بأن يؤدي الزكاة، ويرد أموال الناس إن بقيت ويُغرم بدلها إن لم تبق أو يستحل المستحق فيبرئه، ويجب أن يعلم المستحق إن لم يعلم به وأن يوصله إليه إن كان غائبا إن كان غصبه منه هناك، فإن مات سلمه إلى وارثه، فإن لم يكن له وارث وانقطع خبره دفعه إلى قاض ترضى سيرته وديانته فإن تعذر تصدق به على الفقراء بنية الغرامة له إن وجده. ذكره العبادي في الرقم والغزالي في غير كتبه الفقهية.

وإن كان معسرا نوى الغرامة إذا قدر فإن مات قبل القدرة فالمرجو من فضل الله تعالى المغفرة. روضة الطالبين للنووي (٢٤٦/١١).

ب- أما التحلل من الأعراض إذا ذهبت إلى شخص وقلت له: أنا اغتبتك فسامحني، فليست كل النفوس تتسع لهذا الكلام، وإنما هناك أناس صدورهم متسعة يفرحون بذلك منك، ويدعون الله لك بالتوفيق وبالمغفرة، وهناك أقوام يدخل لهم الشيطان بضعف في قلوبهم فيسألونك: أمام من اغتبتنا؟ ماذا قلت في حقنا؟ ويفتحون معك مسائل فتشوش أنت عليهم فكرهم، وتزيدهم هماً إلى الهم الذي وقع عليهم بسبب اغتيابك لهم.

ففي هذا المقام ترجع المسألة إلى مسألة المفاسد والمصالح، فحيث رجي من التحلل خير قدمت على التحلل، وحيث لا يرجى من التحلل خير اكتفيت بالثناء الحسن على من اغتبته، والاستغفار له، والتصدق من أجله إن شئت، فكل ذلك عمل صالح يكفر الله به عنك خطاياك، وقد قال الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ» (هود:١١٤).

دروس للشيخ مصطفى العدوي (١١/٢٤).

والحمد لله رب العالمين.

أمانة الكلمة بين ورع المتبعين وإسراف المخالفين

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد:

فإن من أهم وأخطر ما يحاسب عليه العبد حصاد لسانه، وحصاد لسانه هو طرح جنانه، فاللسان تابع للقلب وعلامة عليه... والقلب المتصل بالله يورث لسان صاحبه سكونا ووقارا، وأحكام اللسان لا يمكن بحال أن تفصل في مقال واحد، لذا آثرت أن أتناول آدابه أطوف فيها مع حضراتكم على قدر وسعنا مع حديث عنونت له كما تفضلتم وقرأتم "الكلمة بين ورع المتبعين وإسراف المخالفين"، وقد جعلت هذا المقال تأكيدا وتتمة لما كتبه شيخنا فضيلة الشيخ صفوت نور الدين رحمه الله تعالى، والذي أعيد نشره في عدد شوال لعام أربعة وثلاثين وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية بعنوان الكلمة بين الأمانة والحرية، فلتتكرموا بمراجعته لعظيم فائدته.

هذا وتأتي خطورة الكلمة من كونها قد ترفع صاحبها إلى الجنة وقد تضعه في النار، وفي هذا المعنى يرد حديث الباب الذي رواه إمامنا شيخ المحدثين محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ من رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لها بَالًا يَرفعه اللَّهِ بها دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ من سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يهوى بها في جَهَنَّمَ".

عزو الحديث:

هذا الحديث بهذا اللفظ رواه الإمام البخاري في كتاب الرقاق / بَاب حِفْظِ اللِّسَانِ وَقَوْلِ النبي صلى الله عليه وسلم من كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أو لِيَصْمُتْ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: (ما يَلْفِظُ من قَوْلٍ إلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) (٦١١٣) (٢٣٧٦/٥) ط٣/دار ابن كثير بيروت).

قال البخاري: حدثني عبد اللَّهِ بن مُنِيرٍ سمع أَبَا النَّضْرِ حدثنا عبد الرحمن بن عبد اللَّهِ يَعْنِي بن دِينَارٍ عن أبيه عن أبي صالح عن أبي هريرة فذكره.

والحديث نجد بعضه عند مسلم (٢٩٨٨)، ورواه ابن ماجة بمعناه تامًا في باب كف اللسان في الفتنة ج١٣١٢/٢، وروى بعضه الترمذي في بَاب فِيمَنْ تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ يُضْحِكُ بها الناس (٥٥٧/٤) ورواه بتمامه في باب (في قلة الكلام)(٥٥٩/٤)، ورواه غير أصحاب الكتب الستة.

تراجم رجال الحديث:

١- عبد الله بن مُنير: أبو عبد الرحمن المروزي الزاهد ثقة عابد من الطبقة الحادية عشرة ويفرق بينه وبين واحد من نفس طبقته اسمه عبد الله بن منير أيضًا لكنه يكنى بأبي محمد السرخسي، وهو مقبول ترجم له ابن حجر في الترجمة التي بعده ص ٣٢٥.

فائدة: ومنه يتبين مدى دقة أسلافنا الكرام في حكمهم على الرجال مما يحفز هذه الأمة على الفخر بهذا العلم الشريف الذي تميزت به، ويدفعها هذا إلى شكر هذه النعمة والعمل للحفاظ عليها.

فائدة تربوية:

عبد الله بن منير كان من شيوخ البخاري كما رأيتم، ومع هذا كان إذا ذهب رجل يعرفه ابن منير إلى بخارى بلد البخاري، ثم عاد إلى ابن منير يسأله هل لقيت البخاري؟ فإن قال: لا، طرده من مجلسه، وقال: لا خير في رجل يذهب لبلد البخاري ولا يكون حريصًا على لقائه، ثم يقول: البخاري شيخي مع أن ابن منير هو شيخ البخاري، وهذا من تواضع العلماء، فالعلم الذي لا يدعو صاحبه إلى عبادة التواضع لا خير فيه، فما بالنا بعلم يدعو صاحبه إلى الترفع والتعالي على الناس بحجج واهية كأن يظن أن تواضعه فيه إهانة للعلم أو أن مثله لا بد أن يؤتى إليه، أو نحوا من ذلك مما يحتاج إلى ضبط نفس وفقه واقع، ولعل فلسفة ابن منير في طرد من لم يحرص على رؤية البخاري ممن ذهب إلى بلده هي أن محبة أهل والحرص على الالتقاء بهم دليل على صحة المنهج، وأن المعرض عنهم والمترفع عليهم دليل على فساد منهجه، وهذا واقع بكثرة، ومثل هذا عليه أن يراجع نفسه. (وانظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ط/ دار الحديث ١٠/٣٤).

٢- أبو النضر: هاشم بن القاسم بن مسلم الليثي مولاهم البغدادي ولقبه قيصر، ثقة ثبت. تقريب التهذيب (ص ٥٧٠).

٣- عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار: عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار مولى ابن عمر صدوق يخطئ من السابعة أخرج له (خ د ت س) تقريب التهذيب (ص ٣٤٤).

٤- عن أبيه: يعني عبد الله بن دينار: أبو عبد الرحمن المدني مولى بن عمر ثقة من الرابعة، مات سنة سبع وعشرين. ع.

ويحذر من اختلاطه بعبد الله بن دينار البهراني الأسدي أبو محمد الحمصي ضعيف من الخامسة، وهكذا نرى دقة علمائنا في تراجم الرجال والحكم عليهم، وما هذا إلا لأنه دين الله الذي لا مجاملة فيه. تقريب التهذيب (ص ٣٠٢).

٥- أبو صالح: هو ذكوان السمان الزيات المدني ثقة ثبت. (تقريب التهذيب ص ٢٠٣).

٦- أبو هريرة رضي الله عنه: صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الشَّرحُ:

هذا الحديث رواه البخاري في بَاب حفْظ اللِّسَان وَقَوْل النبي صلى الله عليه وسلم: "مَن كَان يُؤْمنُ بالله وَالْيَوْم الْآخر فَلْيَقُلْ خَيْرًا أو ليَصْمُتْ" وَقَوْله تَعالَى: (ما يَلْفظُ منْ قَوْلٍ إلا لَدَيْه رَقيبٌ عَتيدٌ).

وحديثنا في هذا الشهر يوضح أهمية الكلمة والعضو المسئول عنها هو اللسان، لذا وجدنا تبويب الإمام البخاري رحمه الله لهذا الحديث بباب حفظ اللسان، ثم يفصل لهذا الفهم، فيوضح لنا أن هذا الحفظ لا يراد به الإغلاق عليه في الفم فينتج عنه الصمت المطلق، ولكن هذا الحفظ معناه أن يعمل هذا اللسان في الخير الذي كلفه الله به، فإن لم يكن فالحفظ يكون بالصمت، ثم يزيد الأمر وضوحًا بعد وضوح فيورد لنا قول الله تعالى: (ما يَلْفظ من قَوْلٍ إلا لَدَيْه رَقيبٌ عَتيدٌ)، وهو قضاء شديد من رب العزة يوضح أن حصائد الألسنة كلها مكتوبة؛ لأن الله عز وجل خلق لنا اللسان محفوظا في الفم المغلق فلا يفتح إلا بقصد، فكان من كمال عدله أن يحاسب المتكلم على هذا القصد.

يقول ابن بطال البكري في شرحه على صحيح البخاري (١٠/١٨٦): وقوله - صلى الله عليه وسلم -: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت) يعني من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإنه ستبعثه قوة إيمانه على محاسبة نفسه في الدنيا، والصمت عما يعود عليه ندامة يوم القيامة. وقال عمر بن عبد العزيز لرباح بن عبيد: بلغني أن الرجل ليظلم بالمظلمة، فما زال المظلوم يشتم ظالمه حتى يستوي في حقه، ويفضل للظالم عليه. اهـ.

وهنا يرد سؤال: إذا لم يعلم الإنسان الحكم فيما يقول أهو خير أم شر فهل يتكلم أم يسكت؟

إن قول النبي صلى الله عليه وسلم: "فليقل خيرا أو ليصمت" يدل على أن الكلام قسمان: إما خير يتكلم به أو شر يمسك عنه، ويؤكد هذا قول الله تعالى: (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد إذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ)، وخرَج ابن أبي الدنيا: "وهل تقول شيئا إلا وهو لك أو عليك"؟

واختلفوا: هل يُكتب كل ما يتكلم به، أو لا يكتب إلا ما فيه ثواب أو عقاب؟ على قولين مشهورين. ومن هنا يُعلم أن ما ليس بخير من الكلام، فالسكوت عنه أفضل من التكلم به، اللهم إلا ما تدعو إليه الحاجة.

درر من كلام السلف

وكان أبو بكر رضي الله عنه يأخذ بلسانه ويقول: "هذا أوردني الموارد".

وقال ابن مسعود: والله الذي لا إله إلا هو، ما على الأرض أحق بطول سجن من اللسان.

وقال وهب بن منبه: أجمعت الحكماء على أن رأس الحكمة الصمت.

وقال الفضيل بن عياض: "ما حج ولا رباط ولا جهاد أشد من حبس اللسان، وقال: سجن اللسان سجن المؤمن، ولو أصبحت يهمك لسانك، أصبحت في غم شديد".

وسئل ابن المبارك عن قول لقمان لابنه: إن كان الكلام من فضة، فإن الصمت من ذهب، فقال: معناه: لو كان الكلام بطاعة الله من فضة، فإن الصمت عن معصية الله من ذهب. وهذا يرجع إلى أن الكف عن المعاصي أفضل من عمل الطاعات.. وتذاكروا عند الأحنف بن قيس، أيهما أفضل الصمت أو النطق؟ فقال قوم: الصمت أفضل، فقال الأحنف: النطق أفضل؛ لأن فضل الصمت لا يعدو صاحبه، والمنطق الحسن ينتفع به من سمعه. (وانظر: جامع العلوم والحكم ص١٣٥).

قلت: وهذا باب يطول استقصاؤه، والخلاف فيه واسع، ولكن المقصود أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر المتكلم أن يتكلم بالخير، وأن يسكت عما ليس بخير؛ فليس الكلام مأمورًا به على الإطلاق، ولا السكوت كذلك، والله أعلم.

ومن حديث الشهر:

هذا وفي معرض شرحه لحديثنا يفيد شيخنا ابن عثيمين في شرحه لرياض الصالحين (ص:١٧٤٤): أن الرجل يتكلم بالكلمة من رضوان الله: أي كلمة ترضي الله؛ قرآن، تسبيح، تكبير، تهليل، أمر بالمعروف، نهي عن المنكر، تعليم علم، إصلاح ذات البين، وما أشبه ذلك، يتكلم بها ولا يلقي لها بالاً، يعني أنه لا يظن أنها تبلغ به ما بلغت، وإلا فهو قد درسها وعرفها وألقى لها البال، لكن لا يظن أن تبلغ ما بلغت يرفعه الله له بها درجات في الجنة.

وعلى عكس ذلك رجل يتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي بها بالاً يهوي بها في النار: أي كلمة لا ترضي الله كإفساد ذات بين أو فتنة، أو تألي على الله، أو احتقار مسلم أو ما يُشعر بكبر أو غرور أو تعالي أوغيبة أو نميمة أو بهتان أو تجريح أو ما فيه صد عن سبيل الله أو نحو ذلك مما لا يرضي الله عز وجل.. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (١١/ ٣١١): "قوله: (لا يلقي لها بالاً) أي: لا يتأملها بخاطره ولا يتفكر في عاقبتها، ولا يظن أنها تؤثر شيئا.

هذا ولنا هنا وقفة مع ثلاث طوائف من الناس:

أولاهما: مع أصحاب الكلمة المكتوبة:

ها قد رأيتم طرفا من خطورة الكلمة عموما وتزداد هذه الخطورة مع المكتوبة منها؛ وذلك لأنها ما كتبت إلا اختيارا بخلاف ما يوصف أنه سبق لسان ونحن وإن كنا نحسب أن كثيرًا من الكتاب أصحاب رسالة يريد توصيلها ونشرها، لكننا نذكر أنفسنا وإياهم بيوم العرض على الله والذكرى تنفع المؤمنين نقول: لا يغرنكم ما ينادي به بعض الناس من نشر الفكر التنويري، ثم هم في سبيل ذلك يسلكون كل مسلك حلالاً كان أم حرامًا، فالغاية عندهم قد بررت الوسيلة، وهذا بفرض صحة هذه الغاية ولا يغرنكم ما يتناقله بعض أصحاب الصحف من حرية الرأي، وأن الجريدة غير مسئولة عن رأي الكاتب، نعم قد لا تكون مسئولة في الدنيا لكنها عند الله مسئولة وعند الله تجتمع الخصوم.

ولا تصلح اللجاجات والفلسفات الجدلية الباطلة، ولا يغرنَ كاتب خبر أو مقالة أو كتاب قد يحقق به شهرة لكنه قد يهدم بها كيانا عامرًا

ينشر الخير ويدعو إليه فيسيء ويظلم مجتمعا بأسره من حيث لا يعلم.

إن الله عز وجل قد رزقكم منابر دعوة تدعو إلى الخير وتحث عليه، فلا تقصروا في شكر هذه النعمة باستثمارها في تثقيل موازينكم يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

والثانية: طلاب العلم

أولاً: الجرح والتعديل قائم في الأمة إلى قيام الساعة، لكن بشروطه وضوابطه المعلومة لدى أهل العلم، وقد كان يقوم به أفذاذ أهل العلم لا جميعهم.

ثانيًا: إنه مما ابتُليت به الساحة الاسلامية في هذه الأيام ما أشيع بين بعض الإخوة من واجب أوجبوه على أنفسهم، وظنوا أنه لا يستقيم إلتزامهم إلا به ألا وهو إحاطتهم بالحكم على أهل العلم والدعوة بل ودعوة غيرهم إلى ما وصلوا إليه من أحكام في هؤلاء الدعاة، ومن الغريب أنهم ربما ابتدأوا بهذا المرض أو التكليف الذي كلفوا أنفسهم به، ابتدأوا به من الوهلة الأولى لالتزامهم ودخولهم المساجد ولأنهم قد بدأو بهذا الخلق وتعلموه وأتقنوه، ولأنه علم لا يحتاج إلى مجاهدة بل قد يجد الإنسان من حظ نفسه ما يدفعه إلى هذا ويحببه فيه، فإنه يصير من الوهلة الأولى داعيا بدوره إلى هذا الخلق.

وهكذا يتولد عندنا جيل كبير يتسم بالجرأة على أهل العلم والفضل، ويصير معول هدم في جسد الدعوة التي تعب فيها أسلافنا حتى وصلت إلينا فضلاً وأمانة في أعناقنا، أقول لهؤلاء الإخوة: لا يخفى على أمثالكم من طلبة العلم خطورة الكلمة ومزالق اللسان، كما لا يخفى عليكم أن الله عزوجل قد جعل استقامة اللسان من علامات الإيمان، فقال صلى الله عليه وسلم كما في المسند من حديث أنس "لا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه"، فانتبهوا وارفقوا بأنفسكم يرحمكم الله، ولا تكلفوا أنفسكم بما لم تكلفوا به، وقد قال تعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا).

وللثالثة (وهم عامة الناس) أقول: انتبهوا: فكلامكم ستحاسبون عليه:

وذلك في واقعنا جميعا وصوره كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر:

١- فمنها أن يثق الناس في ناصح فيستشيرونه في أحوالهم فبدلاً من تهدئتهم وحسن نصحهم قد تخرج من الناصح كلمة تودي بهم إلى خراب، وذلك كما يحدث بين بعض الأزواج أو نحو ذلك.

٢- ومنها: أن يتكلم رجل عند مديره كلاما يمتدح فيه نفسه، فيفيد الطعن في زملائه.

٣- ومنها: أن تتكلم المرأة في أختها كلاما لتشعر زوجها بفضلها فتهلك نفسها.

٤- ومنها: أن يجلس الرجل للصلح بين اثنين عسى الله أن يصلح بينهما فيخرج منه كلام يزيد الأمر بينهما اشتعالا.. وهكذا.

وأهم مما سبق جميعه: أن يتكلم الإنسان في دين الله بغير علم كلاما قد يصل إلى الكفر والعياذ بالله؛ كأن يتجرأ على رسول الله وسنته بل وعلى كتاب الله وأحكامه هذا فضلاً عن جرأتهم على أصحاب رسول الله ونقلة الدين من سلفنا الصالح ومن تبعهم بإحسان رضى الله عنهم أجمعين يحل بذلك جميعه عرى الدين عروة عروة، وكل ذلك بدعوى العقل والفكر زعموا فوالله لو رزق المتكلم بهذا أدنى درجات الفهم ما ورط نفسه في هذا الوحل، ألا فليعلم هؤلاء جميعا قدر الكلمة في الإسلام فبها يثبت للعبد أحكام الإسلام، وبها تستحل الفروج، وبها تنعقد العقود، وقد يكتب للمرء بها الجنة أو يودي نفسه بسببها في النار أعاذنا الله، وإياكم من دار البوار.

ونختم بكلام لابن القيم رحمه الله في كتابه:

(الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي) ص٢٣٥:

"ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام، والظلم، والزنا والسرقة، وشرب الخمر، ومن النظر المحرم، وغير ذلك ؛ ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتى يرى الرجل يشار إليه بالدين، والزهد، والعبادة، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يلقى لها بالا ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد ما بين المشرق والمغرب. وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات ولا يبالي ما يقول).

وصلى الله وسلم على رحمة الله للعالمين نبينا وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

درر البحار في تحقيق ضعيف الأحاديث القصار

الحلقة (٣٤)

إعداد/ علي حشيش

٣٢٥- «ما اجتمع قوم في مشورة فيهم رجل اسمه محمد لم يدخلوه في مشورتهم إلا لم يبارك لهم فيه».

الحديث: لا يصح، أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١٦٨/١)، ومن طريقه أخرجه ابن الجوزي «الموضوعات» (١٥٦/١) عن علي بن أبي طالب مرفوعًا وعلته أحمد الشامي، قال ابن عدي: هذا حديث ليس محفوظًا وأحمد الشامي هذا هو ابن كنانة منكر الحديث وليس بمعروف، وأورده الإمام الذهبي في «الميزان» (٥٢٢/١٢٩/١) وقال: «هذا حديث مكذوب».

٣٢٦- " ما أُطْعِمَ طعامٌ على مائدة، ولا جُلِسَ عليها، وفيها اسمي إلا قُدِّسوا كلَّ يوم مرّتين ".

الحديث لا يصح: أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١٦٨/١) (٤/٤) عن جابر مرفوعًا، وفيه أحمد الشامي، قال ابن عدي: منكر، والحديث ليس محفوظًا، وقال الذهبي في «الميزان»: هذا حديث مكذوب.

٣٢٧- «من قرأ آية الكرسي لم يتول قبض نفسه إلا الله تعالى»

الحديث لا يصح: أخرجه الخطيب (١٧٤/٦) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا وعلته محمد بن كثير بن مروان الفهري، قال ابن عدي في «الكامل» (٢٥٥/٦) (١٧٣٣/١١٢): «كان ببغداد وهو منكر الحديث عن كل من يروي عنه والبلاء منه ليس ممن يروي هو عنه». اهـ. وروى عن ابن لهيعة الذي احترقت كتبه واختلط، وسماع محمد بن كثير منه غير صحيح، وليس بشيء، كذا في «المجروحين» (١١/٢) لابن حبان.

٣٢٨- " أَسْعَدُ النَّاسِ بي يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْعَبَّاسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ "

الحديث لا يصح: أخرجه ابن عساكر (٣٤٣/٢٦) من حديث ابن جريج عن رجل عن ابن عمر مرفوعًا، والحديث مردود بالسقط الخفي حيث إن ابن جريج مدلس وقد عنعن، فقد ذكره الحافظ ابن حجر في «طبقات المدلسين» المرتبة الثالثة رقم (١٧) قال: «عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج المكي وصفه النسائي بالتدليس، وقال الدارقطني: شر التدليس ابن جريج فإنه قبيح التدليس لا يدلس إلا فيما سمعه من مجروح».

والعلة الأخرى: المبهم: «ومبهم ما فيه راو لم يسم»، ومن أبهم اسمه جُهلت عينه، وجُهلت عدالته من باب أولى فهو مردود.

٣٢٩- «إِنَّ اللَّهَ يُبَاهِي الْمَلائِكَةَ بِالْعَبْدِ إِذَا نَامَ وَهُوَ سَاجِدٌ، يَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا، نَفْسُهُ عِنْدِي وَجَسَدُهُ فِي طَاعَتِي».

الحديث لا يصح: أخرجه ابن أبي الدنيا في «التهجد» (ح٤٠٦) قال: حدثنا محمد بن عثمان، حدثنا حسين بن علي الجعفي عن زائدة حدثنا شيخ من أهل البصرة عن أنس مرفوعًا، والحديث

فيه راوٍ لم يسم فهو مبهم والمبهم مردود، قال الحافظ ابن حجر في «شرح النخبة» (ص٤٩): «ولا يقبل حديث المبهم ما لم يُسم، لأن شرط قبول الخبر عدالة راويه، ومن أبهم اسمه لا تعرف عينه، فكيف تعرف عدالته؟». اهـ.

٣٣٠- «إذا مات الرجل من أهل الجنة استحيى الله أن يعذِّب من حمله ومن اتَّبعه ومن صلَّى عليه».

الحديث لا يصح، أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٧٦/١)، وأورده عنه السيوطي في «اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة» (٤٣١/٢) من حديث عبد الله بن إبراهيم عن المنكدر بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر مرفوعًا وعلته: عبيد الله بن إبراهيم وهم أربعة تتفق أسماؤهم وأسماء آبائهم من رجال «الميزان» (٣٨٨/٢، ٣٨٩) الغفاري، والصنعاني، والدمشقي، والمؤدب، وبالتحقيق تبين أنه الغفاري الذي روى عن المنكدر بن محمد بن المنكدر، كما في «تهذيب الكمال» (٣١٣٥/٤/١٠) حيث إنه والصنعاني من رجال التهذيب أيضًا ، قال الذهبي في «الميزان» (٤١٩٠/٣٨٨/٢): «عبد الله بن إبراهيم الغفاري هو عبد الله بن أبي عمرو المدني يدلسونه لوهنه» قال ابن حبان في «المجروحين» (٣٧/٢): «كان ممن يأتي عن الثقات المقلوب لوهنه»، قال ابن حبان في «المجروحين» (٣٧/٢): «كان ممن يأتي عن الثقات القلوبات وعن الضعفاء الملزقات» والمنكدر شيخه ضعيف ليس بشيء أخرجه ابن حبان في «المجروحين» (٢٤/٣) لذلك قال الحافظ في «التقريب»: «متروك نسبه ابن حبان إلى الوضع». اهـ.

٣٣١- «لَيْلَةَ عُرِجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ، فَمَا مَرَرْتُ بِسَمَاءٍ إِلا وَجَدْتُ فِيهَا اسْمِي مَكْتُوبًا: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ خَلْفِي».

الحديث لا يصح: أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١٨٩/٤) (١٠٠٣/٣٦) من حديث أبي هريرة مرفوعًا وعلته عبد الله بن إبراهيم الغفاري متروك متهم بالوضع كما بيَّنا، وقال ابن عدي: «عامة ما يرويه لا يتابعه الثقات عليه». اهـ. وأورده ابن حبان في «المجروحين» (٣٧/٢) وقال: «هذا خبر باطل». اهـ.

٣٣٢- «أُحْشَرُ يومَ القيامة بين أبي بكر وعمر حتى أُوقَفَ بَيْنَ الحَرَمَيْنِ».

الحديث لا يصح: أخرجه الخطيب كما في «الميزان» (٤١٩٠/٣٨٨/٢) من حديث عبد الله بن عمر مرفوعًا ، وآفته عبد الله بن إبراهيم الغفاري وقال الإمام الذهبي: «هذا غير صحيح قال الحاكم: عبد الله بن إبراهيم يروي عن جماعة من الضعفاء أحاديث موضوعة». اهـ.

٣٣٣- «عُمرُ سِرَاجُ أَهْلِ الجنَّة».

الحديث لا يصح أخرجه ابن عدي في الكامل (١٨٩/٤) (١٠٠٣/٣٦) من حديث عبد الله بن عمر مرفوعًا، قال ابن عدي: هذا الحديث بإسناده لا يرويه غير عبد الله بن إبراهيم، وقال الإمام الذهبي في «الميزان» (٣٨٨/٢): «ذكر له ابن عدي الحديثين اللذين في جزء ابن عرفة في فضل أبي بكر وعمر، وهما باطلان». اهـ.

فائدة: الأحاديث المشتهرة على ألسنة الناس في «شعبان وليلة النصف» خرجناها وحققناها في هذه السلسلة في الأحاديث رقم (١١٤، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣).



الحلقة الثانية

الاستنساخ البشري .. وصناعة الأطفال

رؤية فقهية تربوية معاصرة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فقد تحدثنا في العدد الماضي عن قضية الاستنساخ، وأطفال الأنابيب، وعن ابتكار الإنسان لطرق الإخصاب الصناعي في حالة إصابة أحد الزوجين بالعقم، وأوردنا العديد من الدراسات العلمية التي اهتمت بهذه القضية، وما خلصت إليه من نتائج، ونكمل حديثنا- بإذن الله- فنقول:

إعداد/ د. محمد محمود العطار

في يونيو عام ١٩٧٨م وُلد أول طفل بتقنية الإخصاب خارج الرحم (أو ما يعرف مجازًا بأطفال الأنابيب IVF)، وقد عُدَّ ذلك حدثًا طبيًّا له انعكاساته الطبية والخلقية، وقد أظهرت تلك التقنية حالة من الأمل في تخطي عقبة الانسداد المستعصية بالجهازين التناسليين للذكر والأنثى بما يمنع عملية الإخصاب.

ولقد تصاعد الجدل والنقاش حينئذ حول هذا الموضوع، ومدى مطابقته أو معارضته للسنن الإلهية، وتعالت الأصوات مندِّدة بوصفه خروجًا عن السنن الإلهية الحاكمة في الخلق والإنجاب، وعده الكثير عملاً لا أخلاقيًّا، ومنافيًا للشريعة، فيجب منعه، وحظر العلماء والقائمين عليه من إجراء التجارب في هذا المجال.

لكن، وبعد أن اتضحت وبانت معالمه ولوحظت فوائده، وبعد أن أطر بالأطر الإسلامية والشرعية، وأرسيت قواعد ذلك الموضوع، أصبح اليوم مشروعًا ومتداولاً حتى في الدول الإسلامية، وعُدَّ فتحًا علميًّا كبيرًا ينتفع منه في علاج بعض حالات العقم.

وقد أدى الإخصاب في الأنابيب اليوم إلى ولادة ما يقرب من مليون طفل في أرجاء العالم، وعدَّ البعض فيما مضى الإخصاب في الأنابيب تهديدًا للبشرية، ويثير الاستنساخ في البشر مخاوف مماثلة، حيث إن الاستنساخ يهدد احترامنا للإنجاب البشري بالوسائل الطبيعية، ويمنح جيلاً من الأجيال سيطرة وراثية غير مسبوقة على الجيل التالي، إنه الخطوة الأولى في عالم جيني يصبح الأطفال فيه مجرد أشياء تسهل منابتها، ونتاجات للإرادة البشرية.

ومما لا ريب فيه، أنه لم يتمخض عن التقنية IVF نشوء حشد من الأطفال دون مستوى البشر، كما أنه لم يؤد أي دور في تفتيت النواة الأسرية (الأبوين والأطفال فقط)، إن الهدف من التقنية IVF هو مساعدة التوالد الجنسي على إنتاج كائن بشري متفرد وراثيًّا، أما الاستنساخ فيتجاهل التوالد الجنسي.

وقد ربط البعض بين الاستنساخ وأطفال الأنابيب، وحدث خلط في هذا الموضوع، وهناك فرق بين أطفال الأنابيب والاستنساخ، حيث إن في أطفال الأنابيب تكون البييضة من الأم والحيوان المنوي من الأب، وتكون الزوجة في عصمة الزوج، وفي أثناء حياته، وليس هناك طرف ثالث في العملية، وهذا يختلف تمامًا عن

عملية الاستنساخ.
كما أن الفرق بين أطفال الأنابيب والاستنساخ الحيوي فرق شاسع، إذ إن أطفال الأنابيب ما هم إلا «نوع من التغلب على العقبات التي تقف في طريق المسار الطبيعي للحمل»، أما الاستنساخ الحيوي فهو «عودة بالخلق إلى الوراء من الزمن»، وهذا أمر خطير حقًا، وهو دون شك يثير قضايا أكثر عمقًا من الناحية الفكرية والفلسفية والأخلاقية والاجتماعية والعقائدية.
وتشير الكثير من التوقعات إلى أن الناس خاصة الأغنياء والطموحين، سيستخدمون أنابيب الاختبار بدلاً من الحمل الطبيعي، وذلك ليس فقط للتغلب على مشكلات العقم وعدم الخصوبة، ولكن أيضًا لاستنساخ أنفسهم أو التلاعب بجينات ذريتهم.

الاستنساخ والتجارة بأعضاء الأطفال

أخذت بعض الدول أعضاء من أجساد الأطفال بطريقة غير قانونية، وإننا نخشى أن تستخدم الدول المتقدمة بشرًا من الدول النامية في عملية الاستنساخ لتتخذ أجسادهم كسلعة تجارية، بمعنى أنه يمكنهم عمل توائم متكررة لاستخدامها في نقل الأعضاء، وهذه العملية تنجح مع التوائم أو التوأم المتشابهة؛ لأن كل الأعضاء لديها متماثلة، وتكون نسبة النجاح أقل في نقل الأعضاء بين الإخوة والأخوات ثم الأقارب، ثم بين الذين تتوافق أنسجتهم، ومن المعلوم أن هذا التوافق مهم حتى لا يرفض الجسم العضو المنقول إليه.
ولا داعي لأن نشجع الاستنساخ من أجل الاستفادة بنقل الأعضاء؛ لأنه موجود في حياتنا ويتم بنجاح، كما أن هناك أعضاء في جسد الإنسان تقوم بوظيفتها حتى لو نقص حجمها إلى أكثر من النصف مثل الكبد، فيمكن أن يعيش الإنسان بما يعادل سُبع الكبد بشرط عدم وجود خلايا سرطانية؛ وذلك لأن الكبد ينمو من تلقاء نفسه.

الاستنساخ البشري بين المزايا والمخاطر

منذ أن أعلن عن إمكان استنساخ البشر في نهاية القرن العشرين، وكأن قنبلة نووية أخرى قد فجرت، كالتي ألقتها الولايات المتحدة على هيروشيما وناجازاكي في الحرب العالمية الثانية، وحصدت أرواح الآلاف من البشر الأبرياء، لكن القنبلة هذه المرة لم تلقَ على مدينة معينة، ولم تود بحياة شخص، بل فجرت في اسكتلندا وسمع دويها في جميع أنحاء العالم.
وبعدما جاءت الأديان وهذبت الروابط والعلاقات الاجتماعية، وأمضت ما تعارفه بنو آدم من طريق الارتباط بين الذكر والأنثى وتكوين الأسرة، إذ بهذا الكشف العلمي يحطم كل ما ألفه الناس، ويأتي بطريقة جديدة للإنجاب، يمكن أن تجلب الويلات للبشرية، عندئذ اهتزت القلوب والعقول والضمائر البشرية لهذا الكشف العلمي الخطير.

مزايا الاستنساخ

لقد تعددت الرؤى والأفكار والطموحات حول عوائد الاستنساخ فيقول بعض العلماء المؤيدين للاستنساخ: إن شيوع هذه التقنية سيمكّن الزوجين العقيمين من الحصول على طفل صفاته الوراثية مستمدة من نواة خلية جسدية للزوج، بينما تقوم الزوجة بحمله جنينًا بعد أخذ بييضة منزوعة النواة من سيدة مجهولة، تزرع النواة فيها.
فالاستنساخ التكاثري أصلاً يهدف إلى صنع كائن بشري كامل عن طريق عمليات زرع الخلايا، وإنتاج بويضة ملقحة، وزرعها في أنبوب اختبار، أو في رحم امرأة بحيث يكون الكائن المستنسخ مطابقًا للصفات البيولوجية والوراثية التي أرادها المستنسخ.
وفي هذا الصدد يجب أن نفرق بين حالتين: حالة الاستنساخ لمواجهة العقم عند النساء أو الرجال المتزوجين من أجل مساعدتهم على الإنجاب، وحالة الاستنساخ بالمفهوم العلمي العام الذي يهدف إلى صناعة أطفال من غير طريق مؤسسة الزواج.
ويضيف هؤلاء قائلين: «إن هذا الأسلوب يغني عن شيوع ظاهرة التبني التي يضطر إليها الزوجان العقيمان، أما إذا لم تكن الزوجة عقيمة، فعندئذ يمكن استعمال إحدى بييضاتها، وبذلك يصبح الأمر مقبولاً أكثر

من الناحية الشكلية، ولكن الناتج هنا يعد توأمًا لزوج أو ابنًا؟ وما هي حدود علاقته الشرعية بالزوجة؟».

ومن حالات الاستنساخ المفيدة أيضًا حالة الأسرة التي لديها طفل مريض بمرض خطير، مثلاً: طفل في السابعة مصاب بالليوكيميا أو سرطان كرات الدم البيضاء، ويمكن تجنب موته بعملية زرع نخاع سليم متوافق مع جسمه بحيث لا يلفظه.

كما يرى المؤيدون للاستنساخ والمبهورون به له من المزايا ما يأتي:

١- سيكون لدينا الوسيلة لاسترجاع شخص أحببناه، أو توأم له، أو من يذكر به.

٢- التحسن المستمر لأنسال الجنس البشري.

٣- الرغبة في الحفاظ على الصفات الممتازة للشخص ذاته.

٤- تحضير قطع غيار للشخص من جسده نفسه، مثل النخاع والعظام أو تحضير طفل كامل يتبناه الشخص.

٥- بمجرد تكون الجنين، يعمل منه توأم، يزرع أحد التوأمين في رحم امرأة ليتم نضجه ويصير طفلاً كاملاً، ويجمد توأمه الجنين، ويحتفظ به حتى الاحتياج إليه (كأن يصاب توأمه بسرطان الدم أو الفشل الكلوي يخرج من التجميد، ويتم إنضاجه في رحم مستأجر ليحصلوا لتوأمه على قطعة الغيار اللازمة منه).

٦- المعاونة في البحوث الطبية.

٧- الإبقاء على العظماء والأفذاذ وعمل نسخ منهم.

٨- لمجرد حب الاستطلاع.

٩- ومن المؤكد أننا سنستطيع عن قريب استنساخ المتوفين، كل المطلوب هو أن نأخذ خلية حية من جسد الشخص قبل وفاته ونبقيها حية في مزرعة خلايا قبل زرع نواتها في بييضة تم إفراغها من النواة، وبهذه الطريقة سيمكن للأبوين اللذين فقدا أحد أطفالهما في حادثة أليمة أن ينتجا نسخة بالكربون من طفلهما الذي فقداه.

مخاطر الاستنساخ:

١- إن طريقة التكاثر عن طريق الاستنساخ تخالف النظام الإلهي الذي وصفه الله عز وجل بالإضافة إلى المشاكل التي ستترتب على وجود تشابه تام بين مجموعة من الأفراد، وكذلك فإنه إذا أخذت خلية جسدية من أنثى وأدخلت في بييضة، فإن الأنثى الناتجة لن يكون لها أب، وفي هذا تدمير لنفسية الإنسان ومعنوياته، كما أن الاستنساخ قد يؤدي إلى ضعف المشاعر والعواطف، وبالتالي ضعف الإحساس بالمسئولية والالتزام، الأمر الذي سيعرض الأبناء للإهمال وقلة الرعاية، وضعف التنشئة.

٢- إن الأنظمة الاجتماعية في العالم قائمة على تحمل كل إنسان مسئوليته عن أعماله، واستحقاقه لحقوقه التي يحفظها له المجتمع، وذلك بعد أن تميز بشكله الخاص، وتفرد في مظهره الجسمي، فأخذ هويته التي يعرف بها في المجتمع.

٣- افتقار السكن والمودة والرحمة، وهي هدف عملية الزواج، قال الله تعالى: « وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً » (الروم: ٢١). الأمر الذي يؤدي إلى أن أسرة المستقبل قد تكون بلا دفء ولا ترابط ولا عطاء ولا مودة ولا تراحم.

٤- قد يؤدي الاستنساخ إلى الإكثار من الذكور على حساب الإناث أو العكس، فيختل بذلك التوازن الطبيعي بينهما، وفضلاً عن ذلك فإن الاستنساخ يعطي أفرادًا متطابقين وراثيًا ويلغي الفروق الفردية مما يعرض هؤلاء للإبادة الجماعية فيما لو تعرضوا لوباء مثلاً- حيث ستكون استجاباتهم وقدراتهم على التحمل متساوية.

٥- تفكك عرى الأخوة بين الأبناء، وتصبح الأسرة أحزابًا، فالأم التي تنجب طفلاً ذكرًا يكون نسخة من أبيه ويحمل كل الصفات الوراثية، وتكون نسخة أخرى منها في الولادة الثانية، وهنا لن يكون للأب أي دور في عملية الحمل والإنجاب على الإطلاق، وسوف تلد الأم بنتًا، هي في الحقيقة نسخة منها، وأخت لأخيها الذي هو أيضًا نسخة من الأب، ولكن ما الذي يربط وراثيًا بين الأخ وأخته؟ لا شيء على الإطلاق؛ فأين روابط الدم؟ وأين الصفات

المشتركة التي تجمع بين الإخوة؟ وهل يمكن أن يكون أحد الوالدين عادلاً عندما يحاول تقسيم الإرث على الاثنين، وأحدهما ينتمي إليه تمامًا، وهو نسخة منه، والأخرى تنتمي إلى أمها ولا تنتمي بأي حال من الأحوال إليه؟

٦- العالم اليوم في حاجة إلى العودة إلى النظام الأسري المستقر، لا أن يبحث عن كثير من التشتت الذي يؤدي إلى تدمير النفس وضياعها في زحام الدنيا، إن الطاقم الوراثي هو كنز حبانا الله عز وجل به، ونعمة لا بد من أن نشكره عليه، وأن نوظفها التوظيف الأمثل والاستخدام الأمثل بما يحقق للبشرية السعادة والرفاهية.

٧- إن الاستنساخ البشري سيترتب عليه ممارسة الفكر الضال وشيوع الجريمة، حيث سيكون للبصمة الواحدة مائة شخص، فالإنسان بمثل هذه التقنيات يميل بنفسه إلى الفساد، وتحقيقًا لقوله تعالى: «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ» (البقرة:٣٠)، ويرى بعض رجال الشرطة والقانون أن استنساخ البشر سوف يزيد من معدل الجريمة، وسوف يزيد من فرص التهرب من العقاب؛ حيث إن الإنسان المنسوخ متشابه في كل شيء في الهيئة والشكل واللون والسلوك والصفات الوراثية للشخص المأخوذ منه الخلية الجسدية.

٩- إن أطفالنا في مجتمع المستقبل سيوجهون ولاءهم إلى الدول، وفي المقابل ستقوم الدولة بالاستفادة منهم كل حسب قدراته، وهذه القدرات والصفات تحددها الدول نفسها، إذ إن التوصل إلى التحكم بالمورثات سيجعل التجمعات في المستقبل تفرض معيارًا معينًا يتم على أساس اختيار الصفوة المختارة، كما سيفقد الإنسان الحرية؛ لأنه سيكون تحت سيطرة الآخرين بشكل كامل، إذ إن المجتمع هو الذي سيحدد نوعية الناس الذين سيتم استنساخهم، وسيسمح للبعض بالاختلاط ويمنع البعض الآخر خوفًا من اختلاف مورثات غير مرغوب فيها، ثم إن أفعاله وسلوكه ستكون مفروضة عليه مقدمًا؛ ولهذا يفقد الإنسان حريته.

١٠- إن الاستنساخ ينتهك الحق في الاستقلالية، فباختيار الوالدين للتكوين الوراثي للطفل مقدمًا فهما بذلك يحرمانه من الحق في العيش في مستقبل مفتوح.

١١- إن الاستنساخ يؤدي إلى امتهان كرامة الإنسان، وذلك بالتلاعب بطريقة التناسل باستخدام طرق تناسل غير جنسية، فيتم إهدار كرامة الفرد التي يحرص عليها الإسلام كل الحرص في عملية الاستنساخ البشري، فدور كل من الرجل والمرأة في عملية الإنجاب الطبيعي دور إيجابي فعال كما هو معروف، والجنين يرث صفاتهما، أما إذا جاء الجنين عن طريق الاستنساخ فإن ذلك يعني تجريد كل من الرجل والمرأة من هذا الدور الإيجابي، وفي هذا إهانة لكل منهما.

١٢- إن الاستنساخ يؤدي إلى قتل الأجنة، لكثرة التجارب الفاشلة قبل نجاح أي عملية استنساخ، فالإجهاض في الأصل حرام شرعًا ومعاقب عليه قانونًا.

وفي كل ما تقدم يتضح لنا أن الأدلة التي نطرحها لمعارضة فكرة الاستنساخ تتمثل في النقاط التالية:

- الاستنساخ مغاير للفطرة؛ لأن الفطرة هي التناسل والتزاوج.
- عملية الاستنساخ قد تؤدي إلى تدمير الحياة على هذه الأرض، فالاستنساخ ليس عملاً صحيحًا والعملية ضارة جدًا ولها سلبيات كثيرة، وإن كان لها بعض الإيجابيات.
- إن استمرار البشرية يعتمد على التنوع الجيني، وهذا التنوع يفنى من خلال هذا الأسلوب.
- احتمال تهديم المجتمعات، وتجريد الإنسان من إنسانيته.
- يستلزم اختلاط الأنساب.
- إنه يؤدي إلى الحرمان من مباهج الحياة، كالاستغناء عن الزواج.

ونتحدث إن شاء الله في العدد القادم حول رؤية الاستنساخ البشري من الناحية الفقهية، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

صلاح الأمة في حسن أخلاقها

الحمدُ للهِ الذي جَعلَ الدِّينَ والخُلُقَ الحَسَنَ إليه أتمَّ وسيلةٍ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذي أنزلَ على عبدِه الكتابَ وعلَّمهُ تأويلَهُ، وأشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه المخصوصُ بكلِّ شرفٍ وفضيلةٍ، صلى الله وسلم عليه وعلى آلهِ وصحبِه، وأنصارِه وحزبِه الذين صار الدينُ بهم عزيزًا بعدَ فُشُوِّ كلِّ منكرٍ وشاذٍّ ورَذيلةٍ وبعد؛

إعداد/ للدكتور عماد عيسى

المفتش بوزارة الأوقاف

حُسن الخلق أصل في ديننا:

لا يرتابُ عاقلٌ في أنَّ حُسنَ الخلق في أمتنا ينبغي أن يُخصَّ بمزيدِ الاهتمام، والمجاهدة على مدى الأيام؛ لأنَّه أصلٌ أصيلٌ في ديننَا الحنيف، ومَعْلَمٌ شريفٌ من معالمنَا، وإن تعجبْ فاعجبْ لأكثرِ آيِ التنزيل المتعرضة لحُسن الخُلق تأصيلاً وإيصاءً، لفظًا أو معنًى - بذكرهِ عبارةً أو إشارةً أو تصريحًا أو تلميحًا - وذلك لعلاج ما في الخُلق من أمْتٍ وعوجٍ، أو ضيقٍ وحرجٍ، أو كليهما معًا، وسواءٌ ما كانَ يتعلقُ من تلك الآياتِ بالعقائد كما في قوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) البقرة: ٢١، أو بالعبادات كما في قوله تعالى (اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ) العنكبوت: ٤٥، وقوله تعالى (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) البقرة: ١٨٣، وقوله تعالى: (فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ) البقرة: ١٩٧، أو ما كان في الخلق والسلوك أصالةً كما في الآية الفاذة الجامعة لكل خُلقٍ وفضيلة (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ) النحل: ٩٠.

وفي ذلك بينةٌ ودليلٌ على أنَّ الدينَ بعقائدِه وشرائِعه وشعائرِه يصب في اتجاه

صلاح الأخلاق

صَلاحُ نفسك للأخلاق مَرجعهُ
فقوِّم النفسَ بالأخلاق تَسْتَقِم

وممَّا يدعو إلى الانتباه أنَّ وَصْفَ نبيِّنَا صلى الله عليه وسلم بالعَظمَة جاءَ في مَعرض الثَّناء عليه بحُسن الخُلُق في قوله تعالى (وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) القلم: ٣، ٤، ولا تنس العلاقة الواضحة بين الأجر غير المنقطع (غير ممنون) والخلق العظيم.

حُسن الخلق علمٌ تفتتح به مجالس العلم:

لقد كانت الأمةُ - يوم أن كانت أقومَ قيلًا وأهْدى سبيلًا، وأحسنَ حالًا وأكرمَ مآلًا - تَعُدُّ حُسنَ الخُلق علمًا من العلوم التي أوْلاها سلفُنا الأقْدمون اهتمامًا بليغًا، بل كان مرآةً يَرى المرءُ فيها ثمرةَ علمه وعمله، فكلما ازداد علمًا ازداد خلقًا، وكلما استقام خلقًا ازداد إيمانًا، فكان الرجلُ من السلف يطلبُ العلمَ فلا يلبث أن يُرى ذلك في خلقه و صلاته وخشوعه وزهده ولباسه، وبذلك صاروا أئمةَ هدًى ومصابيحَ دجًى، يُقتدَى بهم على مرِّ الدهور ومدارِ العصورِ، وأصبحوا للمهتدين نجومًا،

وعلى المعتدين والشياطين رجومًا.

وكانوا يفتتحون به مجالسَ العلم قديمًا ليَدخل العلمُ على طهارةٍ ومن ثَمَّ يزكو به القلبُ وتصفو به الروحُ ويطيبُ به العملُ في مدة يسيرة حتى صاروا شيئًا كأنه نَسْجٌ من الخيالِ أو ضربٌ من المحالِ فلله درُّهم وعنده جزاؤُهم.

الأخلاق بين حال الأمة في الأول والآخر:

الناظرُ في حال الأمة في الغابر والحاضر يجدُ البونَ شاسعًا والفرقَ كبيرًا فالأمةُ في صدورها الأول

(عهود الصحابة والتابعين وأتباعهم وتبع الأَتْباع وتَبَع التَّبَع) كما وصفْنا على النقيضِ من حالنا الذي يدور بين وَلد عاقٍّ وأخ مشاقٍ، وأحوالٍ معلولةٍ وأوصالٍ غيرِ موصولةٍ إلا من رحم الله وقليلٌ ما هم

وهذا ما يفسر لنا التِّيهَ والضياعَ الذي وصَلْنا إليه - حتَّى في أوساط طلاب العلم والمتدينين - في زمانٍ كثير الفسادَ قليلَ الرشاد لا يأنَفُ أكثرُ أهلِه من الوَصْمة والْعاب.

لقد أضاعَ المسلمونَ ثروةً عريضةً من الأخلاق الرَّشيدةِ التي بنَوْا بها مَجدَهم وقامتْ عليها حضارتهم العريقة حتَّى نبَتَتْ في زماننا نوابتُ ونابَتْ فيه نوائبُ وراجَ تخنُّثُ الأخلاقِ والشمائل وتأنُّثُ الطباع وارتخاء عَزائم الأخلاق.

ومن أشد الأسبابِ الموصلةِ إلْفُ القبيح من الأخلاق فإن إلْفَهُ مَتْلَفَةٌ للعقل والخلقَ والدين معا وتحصيلٌ للشقاءِ المطْبق والضياع المرير وبالله تُستدْفعُ البلايا.

إذا المجدُ القديمُ توارَثَتْه بناةُ
السوءِ أوشكَ أن يَضيعا

حقيقةُ سوءِ الخلق:

إنَّ سوءَ الخُلق نفْسٌ بَذيءٌ، ومَسْلَكٌ رَديءٌ، وداءٌ مرد مُهْلِكٌ، وقاعٌ صَفْصَفٌ لا تمسك ماءً ولا تُنبتُ كلأً، تَعُجُّ الخلائقُ إلى الله منها عَجيجًا، ويَضِجُّ الناسُ من صاحبها ضَجيجًا، فصاحبُ الخُلق السيِّء فتْنةٌ تمشي على رجْلَيْن وشعوذةٌ تَخْطرُ في حجْلَيْن ونعوذُ بالله من سوءِ المنقلَب.

الظفر بحسن الخلق اصطفاء، كيف السبيل إليه؟

إنَّ حُسنَ الخُلُق صَعبُ المُرْتقَى عَويصُ المطْلب لا يُدْرَكُ بيسير الوقت ولا يُحَصلُهُ ضعيفُ الهمَّة فضلًا عن قَعيد العزم فهو محتاجٌ إلى رسوخ القدَم وعَدَم اليأس ومواصلة الطلبِ والسعي نحوَ معالي الأمورَ وقبلَ ذلكَ إرادةُ الآخرة والسعيُ لها.

فمنْ أجْشَم نفسَهُ وهجرَ اليأسَ بلَغَ منهُ مأْرَبهُ وحقَّق بعون الله تعالى ما يريد وامتازَ من الجمهور الأعظم ولحق بالصَّدر المعظَّم، أهل الدرجاتِ والغرفاتِ في جنات عدن (أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ) البينة:٧.

ولا عَجبَ فقد قالَ النبيُّ (إنَّ المؤمنَ ليُدركُ بحُسْنِ خُلُقه درجةَ الصائم القائم) أبو داود (٤٧٩٨)، وقال أيضا: (إنَّ منْ أحبِّكم إلي وأقْربكم منِّي مجْلسًا يومَ القيامة أحاسنُكم أخلاقًا) الترمذي (٢٠١٨).

وصايا لتحقيق الملكة:

فروِّض نفسكَ على الخلق الحسَن وحقِّق منه بعضَ الملكة وأبْعدْ نفسَك عن قذرِ سَيِّئه فهو بلا ريب عينُ الهلَكة، ولا تيْأسْ من نفسك فليس من أحد إلا وفيه نقصٌ ولا بُدَّ.

من ذا الذي ما ساءَ قطُّ
ومنْ له الحُسنى فقط

وعليك بحسن الخلق فإن صاحبهُ قد جمَع الخيرَ فأوعَى ودَعا زُمَرَ الفضائل فأجابَتْ طوعًا.

وانفضْ يدَك من سُوءِ الخُلق يخْلُ لكَ وجْهُهُ الحسَن وأنتَ قريرُ العينِ رَضيُّ النفس، وكُنْ صاحبَ نفْس طُلَعة وهمَّة فَتيَّة وعزمَة قويَّة، ولا يَغُرنَّكَ الشيطانُ بأنَّكَ ضَعيفٌ أو أنَّكَ في الطريق وحدَك فربَّما أدركَ الظَّالعُ شأْوَ الضَّليع وعُدَّ في جُملة العُقلاءِ المُتعاقل الرَّقيعُ.

والخيرُ عادةٌ والشرُّ لجاجةٌ، فأضئْ لنفسك السبيلَ وادفعْ عن خلقك الدَّخيل وارفعِ الصَّوتَ قبل الفوت لهجًا بالدعاء

النبوي (اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت) مسلم (٧٧١).

وائتِ الإسلامَ من بَابه - حسن الخلق - فإنَّك:

متى ما أتيتَ البيتَ من غير بابه ضللت
وإنْ تدخلْ من البابِ تَهتدِ

ولا تَنتظر أن تَجري بكَ الأيامُ فلا تَستطيعُ حَوْلا ولا طولا (بَادِرُوا بالأعْمَالِ فتنًا كقطعِ الليْلِ المُظْلم) مسلم (١٨٦).

إذا الروضُ أمسَى مجدبًا في ربيعه
ففي أيِّ حينٍ يَستنيرُ ويُخصبُ

وثِقْ بربِّكَ ومَنِّ نفسَكَ بالفوز الرَّبِيحِ واطمَحْ إلى المَعالي من الأخلاقِ:

فَحَيَّهلا إن كنتَ ذا همة فقدْ
حَدَا بكَ حادي الشوقِ واطْوِ المَراحلا
ولا تنتظرْ بالسيرِ رُفقةَ قاعدٍ
ودعْهُ فإنَّ العزمَ يكفيكَ حاملاً

واهْجُرْ سيئَ الخُلقِ قائلًا:

إليْكَ عنِّي إليْكَ عنِّي
فلستُ منكَ ولستَ منِّي

واستعنْ باللهِ ولا تعجزْ من انقلابِ الأحوالِ وتَغيرِ الزمانِ، فَفي اللهِ خلفٌ وهو المستعانُ، ولئنْ كانَ عُودُ الأخلاقِ أصبحَ ذاويًا ورَبْعُهُ أصبح من أهله خاويًا فإنَّ في الأمةِ بَقيَّةً تَقيَّةً نقيةً وفي الزَّوايَا خبايَا وفي الناسِ بقايَا فامضِ وراءهُم حيثُ تؤمرُ واجعلْ شعارَكَ (هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ) طه: ٨٤، وسيعْلمُ حالَ ما جَرى للمُتيَّمِ، ومَنْ خَطبَ الحسناءَ لم يُغلِهُ المَهْرُ.

لولا المشقَّةُ سادَ الناسُ كلُّهمُ
الجودُ يفقرُ والإقدامُ قتَّالُ
وقُلْ لمُرجِّي معالي الأمورِ
بغيرِ اجتهادٍ رجوتَ المُحالا
وكنْ ابنَ منْ شئتَ واكتسبْ خُلقًا
يُغنيكَ محمودُهُ عن النَّسبِ

وأتْعبْ نَفْسكَ لراحتِها وأهِنْهَا في اللهِ لتُكْرِمَهَا مُرَدِّدًا:

أنا العبدُ المخلَّفُ عن أناسٍ
حَوَوْا من كلِّ معروفٍ نَصيبًا

ولا تَكنْ مع المعْرضِينَ فتُحرمَ الخيرَ بالإعراضِ عنك.

أيُّه المعرضُ عَنَّا
إنَّ إعْراضَكَ منَّا
لو أردنَاكَ جعَلْنَا
كلَّ ما فيكَ يُردْنَا

(مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) الأنعام: ٣٩.

وأوِ إلى ظلِّ مصلحي أخلاقِ الأمةِ ونادِ معهم بصوتٍ جهيرٍ - لكن بإحسانٍ - يبلغُ الحاضرَ والبَادِ: يَا أيها الناسُ حسِّنوا أخلاقَكم ؛ فإنَّ الدين كله خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين.

ولا تَأْوِ إلى القَعَدَةِ الذين تركوا أُمَّتهم في أَزْمَتِهَا الخُلقيَّةِ بلا خُطمٍ ولا أزِمَّةٍ وقَالُوا: هَذا مُغْتَسلٌ بَاردٌ وشرابٌ حتى اتَّسعَ الخرقُ على الراقعِ.

هذه نَصيحَتي إليْكَ فاظفرْ بهَا تَربَتْ يَمينُك، أصْلَحَ اللهُ أخلاقَنا، وقَولنَا وعَملَنَا، وبلَّغنَا أمَلنا، وجَعلَ سَعيَنا مُقرِّبًا إليه، ومُزلفًا لديْه وصلى الله وسلم على نَبيِّنا محمد وعَلى آله وصحْبِه ومَن تبعَهم بإحسانٍ إلى يَوم الدينِ.

تهنئة

يتقدم رئيس التحرير بخالص التهاني للابنة الدكتوره/ وفاء إمام حاتم، وذلك لحصولها على درجة الماجستير من كلية الطب، جامعة الزقازيق، في رسالة بعنوان: «التنبؤ بالولادة المبكرة»، وقد تكونت لجنة المناقشة من أ.د/ محمد نجيب عزام مشرفا، وكل من: أ.د/ يسري كمال شداد، وأ.د/ نبيل جمال العرابي مناقشين.

وأسرة تحرير مجلة التوحيد تتمنى لها دوام التوفيق والتقدم والرقي.

صحة حديث رؤية أبي هريرة للشيطان والرد على شبهات المعارضين

إعداد/ المستشار/ أحمد السيد علي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

يثير بعض المنكرين للسنة في هذه الأيام الشبهات حولها ليصدوا الناس عن هدي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن هذه الشبهات التي أثاروها، الشبهتان المتعلقتان بحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه الذي يعد أصح كتاب بعد كتاب الله كما قال عنه أهل العلم والحديث هو رؤية أبي هريرة للشيطان.

أولاً: عرض القصة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: وَكَّلَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ، فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ، وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ؟ "، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: " أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ " فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ، لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّهُ سَيَعُودُ " فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: دَعْنِي، فَإِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لاَ أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟ " قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَكَا حَاجَةً وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: " أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ " فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهَذَا آخِرُ ثَلاَثِ مَرَّاتٍ، إِنَّكَ تَزْعُمُ لاَ تَعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ، قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا، قُلْتُ: مَا هُنَّ؟ قَالَ: " إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ « اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ » (البقرة: ٢٥٥)، حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلاَ يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ؟ "، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: " مَا هِيَ؟ "، قَالَ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ « اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ » (البقرة: ٢٥٥)، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلاَ يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الخَيْرِ، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلاَثِ لَيَالٍ يَا أَبَا

هُرَيْرَةَ؟"، قَالَ: لا، قَالَ: "ذَاكَ شَيْطَانٌ" (أخرجه البخاري ٢٣١١).

ثانيا: عرض الشبهتين:-

الشبهة الأولى: أن الحديث يتعارض مع قوله تعالى: « يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ » (الأعراف ٢٧) فالآية قد نفت رؤية البشر للشيطان، فكيف يراه أبو هريرة ويكلمه؟ فمن ثم فالحديث غير صحيح لمعارضته للقرآن.

الشبهة الثانية: أن أبا هريرة لا يحق له أن يعفو عن السارق، لعدم جواز العفو عن الحدود، ومن ثم فالحديث مخالف لحديث عائشة الذي رواه البخاري بقولها: «أنَّ قُرَيشًا أهَمَّتهُمُ المَرأةُ المَخزوميَّةُ التي سَرَقَت، فقالوا: مَن يُكَلِّمُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومَن يَجتَرِئُ عليه إلَّا أُسامةُ، حِبُّ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكَلَّمَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: (أتَشفَعُ في حَدٍّ من حُدودِ اللهِ). ثم قامَ فخطَبَ، قال: (يا أيُّها النَّاسُ، إنَّما ضَلَّ مَن كان قَبلَكم، أنَّهم كانوا إذا سَرَقَ الشَّريفُ تَرَكوه، وإذا سَرَقَ الضَّعيفُ فيهم أقاموا عليه الحَدَّ، وايْمُ اللهِ، لو أنَّ فاطِمَةَ بنتَ مُحمدٍ، سَرَقَت لقَطَعَ مُحمدٌ يَدَها».

ثالثًا: الرد على هاتين الشبهتين:-

الرد على الشبهة الأولى:

أن الآية التي يحتجون بها ليس فيها نفي إمكانية الرؤية مطلقًا، وإنما النفي مخصوص برؤيتهم على صورتهم الحقيقية التي خلقهم الله عليها، إذ لو كان نفي الرؤية مطلقًا هو المراد لقال تعالى «إنه يراكم هو وقبيله ولا ترونهم»، ولكنه سبحانه قال: « إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡ » (الأعراف: ٢٧)، فدل على أن عدم رؤيتنا لهم مخصوص في بعض حالاتهم، ذلكم أن الله أعطاهم قدرة على أن يتشكلوا بأشكال لا نستطيع رؤيتهم بها، وأعطاهم قدرة على أن يتشكلوا بأشكال نستطيع رؤيتهم بها، قال الحافظ ابن حجر في الفتح: «وفي الحديث من الفوائد... أن الشيطان من شأنه أن يكذب، وأنه قد يتصور ببعض الصور فتمكن رؤيته، وأن قوله تعالى (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) مخصوص بما إذا كان على صورته التي خلق عليها» اهـ.

الشيطان قد يتصور ببعض الصور فتمكن رؤيته .

ومما يؤيد ذلك من القرآن:

١- قوله تعالى: «وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ (٤٧) وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ » (الأنفال ٤٧ – ٤٨).

٢- قوله تعالى: «كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ » (الحشر ١٦).

فالثابت من الآيتين أن الشيطان تكلم مع الإنسان (كفار قريش، والرجل الكافر)، ومن ينفي الرؤية مطلقًا، ينفيها وينفي ما يستلزمها من سماع لكلامهم، فيقول لا يمكن رؤية الجن ولا سماع كلامهم، وهنا تثبت الآيتان سماع الإنس لكلام الشياطين، والسماع فيهما حقيقي – إذ لا يجوز صرف اللفظ عن معناه الحقيقي بغير قرينة صارفة، وليست هناك قرينة معهم على صرف اللفظ عن معناه الحقيقي إلى المعنى المجازي – فالسماع هنا يستلزم الرؤية، والرؤية هنا مخصوصة بالتمثل في صورة بشرية ترى وتسمع.

وهذه المعاينة إما أن تكون في الدنيا من خلال تصور الشيطان بصورة ما، وإما أن تكون في الآخرة. كمثل حوار الشيطان يوم القيامة مع الواقعين في شباكه ومكايده الوارد في

قوله تعالى: «وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ» (إبراهيم: ٢٢).

ومما يؤيد ذلك من السنة:

أنه ثبت أن الجن يتشكلون في صورة حيات وثعابين، وغيرها، فعَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّ بِالْمَدِينَة نَفَرًا مِنْ الْجِنّ قَدْ أَسْلَمُوا فَمَنْ رَأَى شَيْئًا مِنْ هَذِه الْعَوَامِر فَلْيُؤْذِنْهُ ثَلَاثًا فَإِنْ بَدَا لَهُ بَعْدُ فَلْيَقْتُلْهُ فَإِنَّهُ شَيْطَانٌ» (رواه مسلم)

والعوامر: الحيات والثعابين التي تكون في البيوت، لا تقتل حتى تستأذن ثلاثًا فقد تكون من الجن. انظر "غريب الحديث" لابن الأثير.

قال النووي - رحمه الله - في "شرح مسلم": «معناه: وإذا لم يذهب بالإنذار علمتم أنَّه ليس من عوامر البيوت، ولا ممَّن أسلم من الجنِّ، بل هو شيطان، فلا حرمة عليكم فاقتلوه، ولن يجعل الله له سبيلاً للانتصار عليكم بثأره بخلاف العوامر ومن أسلم، والله أعلم» اهـ.

وقال شيخ الإسلام - رحمه الله - في "مجموع الفتاوى": «والجن يتصورون في صور الإنس والبهائم فيتصورون في صور الحيات والعقارب وغيرها وفي صور الإبل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير وفي صور الطير وفي صور بني آدم كما أتى الشيطان قريشًا في صورة سراقة بن مالك بن جعشم لما أرادوا الخروج إلى بدر» اهـ.

الرد على الشبهة الثانية:-

ويرد عليها من وجوه هي:

الوجه الأول: ما ذكره ابن حجر- رحمه الله - في "فتح الباري شرح صحيح البخاري" بقوله: «وفيه أن السارق لا يقطع في المجاعة، ويحتمل أن يكون القدر المسروق لم يبلغ النصاب ولذلك جاز للصحابي العفو عنه قبل تبليغه إلى الشارع.» اهـ. ومما يؤيد أن المبلغ المسروق لم يبلغ النصاب، ما جاء في رواية أبي المتوكل عن أبي هريرة «أنه كان على تمر الصدقة فوجد أثر كف كأنه قد أخذ منه» ورواية ابن الضريس من هذا الوجه: «فإذا التمر قد أخذ منه ملء كف» (ذكرهما ابن حجر في الفتح).

الوجه الثاني: جواز العفو عن الحدود، قبل أن ترفع للحاكم، فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تعافَوا الحدودَ فيما بينَكم، فما بلغني من حدٍّ فقد وجبَ» (أبو داود وصححه الألباني) وفي رواية: «تعافوا الحدودَ قبلَ أن تأتوني به، فما أتاني من حدٍّ فقد وجبَ.» (رواه النسائي وصححه الألباني)

الوجه الثالث: ما ذكره بعض العلماء من أن أبا هريرة كان وكيلا عن النبي صلى الله عليه وسلم في حفظ تمر الصدقة وقد أسلف أبو هريرة الرجل (الذي جاء الشيطان في صورته) التمر الذي أخذه، وأجازه النبي صلى الله عليه وسلم، فلم ينكر عليه، ولذلك بوب البخاري الباب الوارد فيه الحديث بقوله: (باب إذا وكل رجلا فترك الوكيل شيئًا فأجازه الموكل فهو جائز، وإن أقرضه إلى أجل مسمى جاز). قال الحافظ في الفتح: «وأخذ ذلك من حديث الباب بطريق أن الطعام كان مجموعًا للصدقة وكانوا يجمعونه قبل إخراجه، وإخراجه كان ليلة الفطر، فلما شكا السارق لأبي هريرة الحاجة تركه فكأنه أسلفه له إلى أجل وهو وقت الإخراج. وقال الكرماني: تؤخذ المناسبة من حيث أنه أمهله إلى أن رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم» اهـ.

يجوز العفو عن الحدود إذا لم تبلغ السلطان.

من كل ما سبق يتضح تهاوي الشبهتين، وأنهما على غير أساس، ويتضح جواز رؤية الإنس للجن على غير صورتهم الحقيقية التي خلقهم الله عليها، والله أعلم.

باب الفقه

السجود

(تعريفه، حكمه، حكمته، الاطمئنان فيه، صفته، ما يقال فيه)

إعداد/ د. حمدي طه

الحلقة الرابعة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعدُ:

ناقشنا في العدد السابق أقوال الفقهاء في هيئة السجود، ونواصل في هذا العدد الحديث عن أذكار السجود.

حكم التسبيح في السجود:

ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ وَهُمُ الْحَنَفِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ وَرِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ إِلَى أَنَّ التَّسْبِيحَ وَسَائِرَ الأَذْكَارِ وَالأَدْعِيَةِ الْوَارِدَةَ فِي السُّجُودِ سُنَّةٌ لَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ، فَلَوْ تَرَكَهَا الْمُصَلِّي عَمْدًا لَمْ يَأْثَمْ وَصَلاَتُهُ صَحِيحَةٌ، سَوَاءٌ تَرَكَهَا عَمْدًا أَوْ سَهْوًا، وَلَكِنْ يُكْرَهُ تَرْكُهَا عَمْدًا. (الموسوعة الفقهية الكويتية ٢١٠/٢٤).

(واحتج الجمهور) بحديث المسيء في صلاته؛ فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم علمه واجبات الصلاة ولم يعلمه هذه الأذكار مع أنه علمه تكبيرة الإحرام والقراءة، فلو كانت هذه الأذكار واجبة لعلمه إياها؛ لأن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز، فيكون تركه لتعليمه دالا على أن الأوامر الواردة بما زاد على ما علمه للاستحباب لا للوجوب (نيل الأوطار - للشوكاني ٢٨٤/٢).

وَذَهَبَ الْحَنَابِلَةُ وَإِسْحَاقُ إِلَى وُجُوبِ التَّسْبِيحِ فِي السُّجُودِ فَإِنْ تَرَكَ شَيْئًا مِنْهَا عَمْدًا بَطَلَتْ صَلاَتُهُ، وَإِنْ تَرَكَ نِسْيَانًا لَمْ تَبْطُل صَلاَتُهُ بَل يَسْجُدُ لِلسَّهْوِ، لأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَلَهُ وَأَمَرَ بِهِ. فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال «لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم، قال لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: اجعلوها في ركوعكم، فلما نزلت سبح اسم ربك الأعلى قال: اجعلوها في سجودكم» رواه أحمد. وَأَمْرُهُ - صلى الله عليه وسلم - لِلْوُجُوبِ، وَقَال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي) أخرجه البخاري ح ٦٠٠٨ (الموسوعة الفقهية الكويتية ٢١٠/٢٤ بتصرف).

والأرجح قول الجمهور لقوة أدلتهم، وقد سبق بيان ذلك في الركوع.

وقال الحنفية: لا يأتي المصلي في ركوعه وسجوده بغير التسبيح، على المذهب، وما ورد من الدعاء في السجود محمول على النفل، ويندب الدعاء في السجود عند المالكية والشافعية والحنابلة. (الفقهُ الإسلاميُّ وأدلَّته للدكتور وهبة الزحيلي ٨٤/٢ بتصرف).

ودليل الجمهور خبر ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « فأمَّا الرُّكوعُ فعظِّموا فيه الرَّبَّ، وأمَّا السُّجودُ فاجْتهِدُوا في الدُّعاءِ فقَمِنٌ أنْ يُسْتَجابَ لكُم ». صحيح مسلم ح٤٧٩.

قال النووي: هو بفتح القاف وفتح الميم وكسرها لغتان مشهورتان، ومعناه حقيق وجدير (شرح صحيح مسلم ١٩٧/٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « أقْرَبُ ما يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّه وَهُوَ ساجِدٌ، فأكْثِروا الدُّعاء) صحيح مسلم ح٤٨٢.

ما يقال من الذكر والدعاء في السجود:

الذكر والدعاء في السجود قد وردت له عدة صيغ وكان صلى الله عليه وسلم يقول في هذا الركن تارة هذا وتارة هذا.

أشهر هذه الصيغ وأوْلاها:

١- (سبحان ربي الأعلى) ثلاثاً، فيُسن الأخذُ بها وتقديمها على الصيغ الأخرى، ولا مانع من قول هذه الصيغ الأخرى عقب قول (سبحان ربي الأعلى) ثلاثا، إذ الجمع بين صيغتين أو أكثر هنا جائز، وتقديم هذه الصيغة على غيرها من الأذكار التي سأذكرها بعد قليل لأنها الصيغة الوحيدة التي أمرنا بها الرسول - صلى الله عليه وسلم -، في حين أن الأذكار الأخرى قد وردت من أفعاله فحسب. (الجامع لأحكام الصلاة ٢٦٠/٢).

فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: «لما نزلت فسبِّح باسم ربك العظيم، قال لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: اجعلوها في ركوعكم، فلما نزلت سبح اسم ربك الأعلى قال: اجعلوها في سجودكم» رواه أحمد. وعن حُذيفة بن اليمان رضي الله عنه «أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول إذا ركع: سبحان ربي العظيم، ثلاث مرات، وإذا سجد قال: سبحان ربي الأعلى، ثلاث مرات» رواه ابن ماجة ح ٨٨٨ وصححه الألباني.

قال الألباني: و(كان - أحيانا - يكررها أكثر من ذلك).

وبالغ في تكرارها مرة في صلاة الليل حتى كان سجوده قريباً من قيامه وكان قرأ فيه ثلاث سور من الطوال: البقرة والنساء وآل عمران - يتخللها دعاء واستغفار كما سبق في (صلاة الليل). (صفة صلاة النبي ناصر الدين الألباني ص ١٤٥).

وَقَدْ جَرَى خِلَافٌ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي زِيَادَةِ لَفْظِ « وَبِحَمْدِهِ » بَعْدَ قَوْلِهِ: « سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى ».(الموسوعة الفقهية الكويتية٢٥ /٢٠٤). قال الشيخ العثيمين في بيان الترجيح في هذا الخلاف: والصَّحيح أنَّ المشروعَ أن يقولَ أحياناً: «وبحمده»؛ لأنَّ ذلك قد جاءت به السُّنَّة. وقد نَصَّ الإمام أحمد أنه يقول هذا وهذا؛ لورود السُّنَّة به، فيقتصر أحياناً على: «سبحان رَبِّيَ العظيم»، وأحياناً يزيد: «وبحمده». (الشرح الممتع ٧/٣).

وَقَدْ جَرَى خِلَافٌ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ كذلك فِي هَل قَوْل: « سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى » هُوَ الْمُتَعَيِّنُ أَمْ لِلْمُصَلِّي أَنْ يَخْتَارَ مَا شَاءَ مِنْ أَلْفَاظِ التَّسْبِيحِ؟ وَهَل مِنَ الْمُسْتَحَبِّ أَنْ يُكَرِّرَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ أَوْ أَكْثَرَ مَعَ اعْتِبَارِ حَال الْمُصَلِّي إِذَا كَانَ مُنْفَرِدًا، أَوْ إِمَامًا، أَوْ مَأْمُومًا؟ (الموسوعة الفقهية الكويتية٢٥/٢٠٤).

٢- وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «... إذا سجد قال: اللهم لك سجدت وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه فصوَّره فأحسن صُوَره، فشق سمعَه وبصرَه، فتبارك الله أحسنُ الخالقين...» رواه أبو داود ح ٧٦٠ وصححه الألباني.

٣- عن عائشة رضي الله عنها قالت «فقدتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذات ليلة في الفراش، فجعلت أطلبه بيدي، فوقعت يدي على باطن قدميه وهما منتصبتان، فسمعته يقول: اللهم إني أعوذ برضاك من سَخَطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصى ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» رواه أبو داود ح ٨٧٩ وصححه الألباني.

٤- عن ابن عباس رضي الله عنه قال «بتُّ في بيت خالتي ميمونة فرمقت كيف يصلي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وذكر جملة من أفعال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفيه فجعل يقول في صلاته أو في سجوده: اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، وعن يميني نوراً، وعن شمالي نوراً، وأمامي نوراً،

وخلفي نوراً، وفوقي نوراً، وتحتي نوراً، واجعل لي نوراً، أو قال: واجعلني نوراً» رواه مسلم ح ٧٦٣.

٥- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يقول في سجوده «اللهم اغفر لي ذنبي كله دقه وجله، وأوله وآخره وعلانيته وسره» رواه أبو داود ح ٨٧٨ وصححه الألباني.

٦- عن عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكثر أن يقول في رُكوعه وسُجوده: سُبحانك اللَّهُمَّ ربَّنا وبحمدك، اللَّهُمَّ اغْفرْ لي يتأول القرآن» رواه البخاري ح ٨١٧.

٧- عن مطرف بن عبد الله بن الشخير أن عائشة نبأته أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» كان يقول في ركوعه وسجوده سبوح قدوس رب الملائكة والروح رواه مسلم ح ٤٨٧.

٨ - عن عوف بن مالك قال: قمت مع النبي - صلى الله عليه وسلم -، فبدأ، فاستاك وتوضأ، ثم قام، فصلى، وفيه ثم سجد بقدر ركوعه، يقول في سجوده: سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة)) رواه النسائي ح ١١٣٢وصححه الألباني، وهذا كان يقوله في صلاة الليل.

٩ - وعن عائشة: فقدت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من مضجعه، فجعلت ألتمسه، وظننت أنه أتى بعض جواريه، فوقعت يدي عليه وهو ساجد يقول: اللهم اغفر لي ما أسررت وما أعلنت. رواه النسائي ح ١١٢٣ وصححه الألباني.

قراءة القرآن في السُّجود:

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى كَرَاهَة قِرَاءَة الْقُرْآن في السُّجُود، لِحَدِيث عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ قَالَ: «نَهَاني رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ عَنْ قِرَاءَة الْقُرْآن وَأَنَا رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ». وَعَنِ ابْنِ عَبَّاس رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا أَنَّ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ قَالَ: «أَلَا وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا» رواه مسلم ح ٤٧٩(الموسوعة الفقهية الكويتية ٢٤/ ٢١١).

قال الترمذي في التعليق علي هذا الحديث: (وهو قول أهل العلم من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - ومَن بعدهم، كرهوا القراءة في الركوع والسجود). (سنن الترمذي ٢/ ٤٩).

قال النووي: فلو قرأ في ركوع أو سجود غير الفاتحة كره ولم تبطل صلاته وإن قرأ الفاتحة ففيه وجهان لأصحابنا أصحهما أنه كغير الفاتحة فيكره ولا تبطل صلاته والثاني يحرم وتبطل صلاته هذا إذا كان عمدا فإن قرأ سهوا لم يكره (شرح صحيح مسلم ٤/ ١٩٧).

وذهب بعض العلماء وبعض الظَّاهرية إلي أن النهي للتحريم فقالوا: الركوع والسجود موضع للتسبيح، وهو التنزيه، ولذا تحرم قراءة القرآن في الركوع والسجود، وقد جاء النهي الصحيح عن القراءة في الركوع والسجود، فإذا قرأ القرآن وهو راكع أو ساجدٌ فقد أتى بما نهى الشَّارعُ عنه فتبطل الصَّلاة، كما لو تكلَّم، قال زيد بن أرقم: «أمرنا بالسُّكوت ونُهينا عن الكلام». (انظر صفة صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم: عبد الكريم الخضير ص ٢٦ بتصرف).

قال الشيخ العثيمين في التعقيب علي هذا الاستدلال:

وهو دليل قويٌّ لكنه عند التأمل نجد الفَرْق بين «نُهينا عن الكلام» وبين «نُهيتُ أن أقرأ القرآن» أنَّ النهيَ عن قراءة القرآن نهيٌ عن قراءته في هذا المحل؛ لا عن قراءته مطلقاً، فإن القرآن قول مشروع في الصَّلاة، بل رُكن فيها في الجملة، فالفاتحة قراءتها رُكْنٌ؛ بخلاف كلام الآدميين؛ فإنه منهيٌّ عنه لذاته نهياً مطلقاً، فصار القياس غير صحيح، فالأصل أن القراءة غير محرَّمة في الصَّلاة بل مشروعة في موضعها، لكن النَّهي عن كونها في هذا الموضع فقط، فلم يكن ذلك مبطلاً للصَّلاة، وهذا هو الرَّاجح، أعني: أنها لا تبطل،ولكن لا يقرأ في الرُّكوع والسُّجود، لأن القرآن أشرف الكلام؛ فلا يناسب أن يُقال في هيئة فيها الذُّل والخضوع، وإنْ كان في الذُّل لله رفعة وعزَّة، لكن الهيئة لا تتناسب مع القرآن، بل المناسب هو القيام؛ ولهذا كان المناسب في الرُّكوع والسُّجود تنزيه الله - عن النقص والذُّل - سبحانه وتعالى. (الشرح الممتع ٣/ ٢٩٢)

وللحديث بقية إن شاء الله.

والحمد لله رب العالمين.

واحة التوحيد

من نور كتاب الله

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (محمد: ٧).

من دلائل النبوة

عن السائب بن يزيد قال: ذهبت بي خالتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله! إن ابن أختي وَجِع، فمسح رأسي ودعا لي بالبركة، ثم توضأ فشربت من وضوئه، ثم قمت خلف ظهره فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه مثل زر الحجلة. (متفق عليه)

من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم

في شهر شعبان

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم، وما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استكمل صيام شهر قط إلا رمضان، وما رأيته في شهر أكثر صياما منه في شعبان.

(سنن أبي داود وصححه الألباني).

حكم ومواعظ

عن بلال بن سعد قال: أخ لك كلما لقيك ذكرك بحظك من الله، خير لك من أخ كلما لقيك وضع في كفك دينارًا. (سير أعلام النبلاء).

من نصائح الحكام

قال عبد الملك بن مروان لبنيه: "كلكم يترشح لهذا الأمر (أي: تولي الخلافة)، ولا يصلح له منكم إلا من كان له سيف مسلول، ومال مبذول، وعدل تطمئن إليه القلوب". (العقد الفريد لابن عبد ربه).

خلق سيء فاحذره

عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: "كل الخلال يطوى عليها المؤمن، إلا الخيانة والكذب". (ذم الكذب لابن أبي الدنيا)

خلق حسن فالزمه

عن الحسن قال: "والله لأن أقضي لامرئ مسلم حاجة أحب إلي من أن أصلي ألف ركعة". أي: إن قضاء حوائج الناس أفضل من صلاة التطوع.

(اصطناع المعروف لابن أبي الدنيا)

إعداد / علاء خضر

من دعائه صلى الله عليه وسلم

عن أبي بكر رضي الله عنه قال: "قلت لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، علّمني دعاء أدعو به في صلاتي، قال: «قل اللهمّ إنّي ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذّنوب إلّا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنّك أنت الغفور الرّحيم» (أخرجه البخاري).

من فضائل الصحابة

عن أيوب السختياني قال: "دخلت المدينة والناس متوافرون؛ القاسم بن محمد وسليمان وغيرهما، فما رأيت أحدًا يختلف في تقديم أبي بكر وعمر وعثمان". (السنة للخلال).

أحاديث باطلة لها آثار سيئة

" الأبدال في هذه الأمة ثلاثون، مثل إبراهيم خليل الرحمن عزّ وجل، كلما مات رجل أبدل الله تبارك وتعالى مكانه رجلاً". قال الألباني: منكر. ثم قال: واعلم أن أحاديث الأبدال كلها ضعيفة لا يصح منها شيء، وبعضها أشد ضعفًا من بعض. (السلسلة الضعيفة)

من أقوال السلف

عن أيوب السختياني قال: إن من سعادة الحدث (أي: الشاب) والأعجمي (أي: غير العربي) أن يوفقهما الله لعالم من أهل السنة. (أصول الاعتقاد للالكائي).

من معاني الأحاديث

«لو يعلم الناس ما في التهجير لاستبقوا إليه» **التهجير:** التبكير إلى كل شيء والمبادرة إليه. يقال: هجر يهجر تهجيرًا، فهو مهجّر، وهي لغة حجازية، أراد المبادرة إلى أول وقت الصلاة. (النهاية لابن الأثير)

من التنطع في طلب الفتوى

عن الأعمش، قال: أتى رجل الشعبي، فقال: ما اسم امرأة إبليس؟ قال: ذاك عرس ما شهدته. (سير أعلام النبلاء)

من حكمة الشعر

وإذا أظهرت شيئًا حسنا
فليكن أحسن منه ما تُسِرّ
فمُسرّ الخير موسوم به
ومُسرّ الشرّ موسوم بشرّ
(العقد الفَريد لابن عبد ربه)

الحلقة ٧٢

أثر السياق في فهم النص

تأثير قرائن السياق على الأحكام الفقهية

الطلاق المعلق

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

تكلمنا في العدد السابق عن الطلاق ومشروعيته، وعن قسميه المنجز والمعلق، وذكرنا اختلاف العلماء في حكم إيقاع الطلاق المعلق على ثلاثة أقوال:

إعداد/ متولي البراجيلي

القول الأول: وهو قول الجمهور: أن الطلاق المعلق واقع في جميع الأحوال.

القول الثاني: وهو ما ذهب إليه ابن تيمية وابن القيم وغيرهما، التفرقة بين الطلاق المعلق الذي يجري مجرى القسم، وهو الذي لا يقصد به صاحبه إيقاع الطلاق، وإنما يستخدمه كيمين القسم وبين الطلاق المعلق الذي يقصد به صاحبه وقوع الطلاق ولم يجر مجرى اليمين.

القول الثالث: وهو ما ذهب إليه ابن حزم ومن وافقه: أن الطلاق المعلق لا يقع في جميع الأحوال.

أولا: قول الجمهور القائلين بوقوع الطلاق المعلق في جميع الأحوال:

وردت عموميات وبعض الآثار عن الصحابة غالبها فيها علل، ولا نعرف حديثا صحيحًا صريحًا ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في وقوع الطلاق المعلق أو عدم وقوعه، ومن هذه العموميات:

١- أن آيات الطلاق وردت على العموم لم تفرق بين طلاق منجز وطلاق معلق، ومن قال بالتخصيص فعليه الدليل.

٢- حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه وغيره من الصحابة: «المسلمون على شروطهم» (انظر إرواء الغليل ح ١٣٠٣).

- ومن آثار الصحابة:

١- ما أخرجه البخاري عن نافع، قال: طلق رجل امرأته البتة إن خرجت، فقال ابن عمر رضي الله عنهما: إن خرجت فقد بتت منه، وإن لم تخرج فليس بشيء. (أخرجه البخاري في الصحيح معلقا بصيغة الجزم عن نافع).

فائدة:

الحديث المعلق: هو الحديث الذي حُذف من مبتدأ إسناده واحد أو أكثر، وقد يحذف السند كله. وحكمه أنه حديث ضعيف لانقطاع الإسناد، لكن معلقات البخاري لها

شأن آخر ؛ إذ نظر فيها العلماء، وفرقوا بين ما علقه البخاري بصيغة الجزم كقال، وروى، ونحو ذلك فقد حكم العلماء بصحته لمن علقه عنه، مثال ذلك: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كذا وكذا، قال ابن عباس: كذا، قال مجاهد: كذا فكل ذلك حكم منه (البخاري) على من ذكره عنه بأنه قد قال ذلك ورواه، فلن يستجيز إطلاق ذلك إلا إذا صح عنده ذلك عنه... وأما ما لم يكن في لفظه جزم، مثل: روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا وكذا، أو روي عن فلان كذا وكذا أو في الباب عن النبي صلى الله عليه وسلم كذا وكذا. فهذا وما أشبهه من الألفاظ ليس في شيء منه حكم منه بصحة ذلك عمن ذكره عنه. لأن مثل هذه العبارات تستعمل في الحديث الضعيف أيضا، ومع ذلك فإيراده له في أثناء الصحيح مشعر بصحة أصله إشعارا يؤنس به ويركن إليه (انظر مقدمة ابن الصلاح ت ٦٤٣هـ، صـ ٢٤، ٢٥).

أما لماذا علق البخاري؟ فلأسباب منها: كون الحديث معروفا من جهة الثقات عمن علقه عنه، أو لكون ذكره متصلا في موضع آخر من كتابه أو لسبب آخر لا يصحبه خلل الانقطاع (انظر المنهج الروي لابن جماعة ت ٧٣٣هـ، صـ٤٩)، وعلى العموم فقد قام الحافظ ابن حجر بتغليق معلقات البخاري في « تغليق التعليق) أي جاء بأسانيد متصلة لها، مع ملاحظة أن الحافظ لم يصل هذا الأثر).

نعود لحديث ابن عمر رضي الله عنهما: ففي الحديث أن ابن عمر رضي الله عنهما أوقع الطلاق على الحالف به عند الحنث في يمينه، ولم يستفصله عن نيته، هل يقصد الطلاق أم يقصد التهديد أو نحوه. (والمعنى أنه سئل ابن عمر: ما حكم رجل طلق امرأته البتة، يعنى بائنا إن خرجت من الدار؟ فأجاب ابن عمر: إن خرجت وقع طلاقا بائنا، وإن لم تخرج لا يقع شيء، لأنه تعليق بالشرط فلا يتنجز إلا عند وجود الشرط (عمدة القاري لبدر الدين العيني ت ٨٥٥هـ، ٢٠/٢٥٣).

٢- ما ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه في رجل قال: لامرأته: إن فعلت كذا وكذا فهي طالق فتفعله، قال: هي واحدة، وهو أحق بها (السنن الكبرى للبيهقي ح١٥٠٩٠ أورده البيهقي بسنده عن إبراهيم عن ابن مسعود رضي الله عنه، والسند فيه انقطاع بين إبراهيم النخعي وابن مسعود رضي الله عنه).

فائدة: في سماع إبراهيم النخعي من الصحابة رضي الله عنهم قال ابن المديني: إبراهيم النخعي لم يلق أحدًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.... ورأى أبا جحيفة وزيد بن أرقم وابن أبي أوفى ولم يسمع منهم. وقال يحيى بن معين وأبو زرعة وأبو حاتم: إبراهيم النخعي دخل على عائشة رضي الله عنها وهو صغير، زاد الرازيان: ولم يسمع منها. وقال أبو حاتم: أدرك أنسا ولم يسمع منه، وقد أثبتت جماعة أنه سمع من عائشة رضي الله عنها، وقد قال بعض أهل العلم: إن مرسلات إبراهيم النخعي لا بأس بها، كأحمد بن حنبل، وأشار البيهقي إلى أن هذا إنما يجيء فيما جزم به إبراهيم النخعي عن ابن مسعود وأرسله عنه، فإذا قال: قال ابن مسعود فإنه يكون سمع ذلك من جماعة من أصحابه عنه (انظر جامع التحصيل للعلائي ت ٧٦١هـ ص: ٢٨، ٧٧، ٧٨، ٨٧، ١٤١، والمراسيل لابن أبى حاتم ت ٣٢٧هـ ص: ٨-١٠)).

٣- ما جاء عن علي رضي الله عنه: أن رجلا تزوج امرأة وأراد سفرا، فأخذه أهل امرأته، فجعلها طالقا إن لم يبعث بنفقتها إلى شهر، فجاء الأجل (أي الشهر الذي علق عليه الطلاق) ولم يبعث إليها بشيء، فلما قدم خاصموه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال علي رضي الله عنه: اضطهدتموه حتى جعلها طالقا. فردها عليه، أورده ابن

حزم بسنده عن الحسن، والحسن حديثه عن علي رضي الله عنه مرسل، قال أبو زرعة: رأى عثمان بن عفان وعليًا ولم يسمع منهما حديثا. وكان الحسن البصري يوم بويع لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ابن أربع عشرة ورأى عليًا بالمدينة، ثم خرج علي إلى الكوفة والبصرة ولم يلقَ الحسن بعد ذلك، وقال علي بن المديني: الحسن لم يرَ عليًا إلا أن يكون رآه بالمدينة وهو غلام. وقال أحمد بن حنبل: ليس في المرسلات شيء أضعف من مرسلات الحسن وعطاء بن أبي رباح فإنهما كانا يأخذان من كل ضرب . (انظر المراسيل لابن أبي حاتم صـ٣١، ٣٢، وجامع التحصيل للعلائي ص٧٨).

٤- ما روي عن هشام بن عروة، قال: ضرب الزبير أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهم - فصاحت بعبد الله بن الزبير، فلما رآه قال: أمك طالق إن دخلت، فقال له عبد الله: أتجعل أمي عرضة ليمينك؟ فاقتحم عليه فخلصها فبانت منه، قال: ولقد كنت غلاما ربما أخذت بشعر منكبي الزبير (والشاهد قوله: فبانت منه)، والحديث ضعيف (أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ح ٢٣٤، والذهبي في السير ٢/٢٩١-٢٩٢، ومداره على: عبد الله بن محمد بن يحيى بن عروة بن الزبير المدني، قال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الثقات، وقال أبو حاتم الرازي: متروك الحديث، وساق ابن عدي له أحاديث، ثم قال: عامتها مما لا يتابعه عليه الثقات (انظر ميزان الاعتدال للذهبي ت ٧٤٨هـ ٢/٤٨٦، ولسان الميزان للحافظ ابن حجر ت ٨٥٢، ٣/٣٣١) (انظر رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين ت ١٢٥٢،٣/٢٥٣، القوانين الفقهية لابن جزي ت ٧٤١ هـ صـ١٥٣، ١٥٤، روضة الطالبين للنووي ت ٦٧٦هـ ٨/١١٤ -١٢٤، المغني لابن قدامة ت ٦٢٠هـ ٧/٤٢٢-٤٢٨).

فائدة: حول الإجماع الذي ذكره بعض أهل العلم في وقوع الطلاق المعلق بإطلاقه، ونقل ذلك السبكي في فتاويه عن قتادة. (مسألة الحلف بالطلاق المعلق ٢/٣٠٩). وقد أجيب عن هذا الإجماع بأنه ليس في الطلاق المعلق، بكل أقسامه، وإنما الإجماع خاص بالطلاق المعلق بصفة... إذا قصد به حقيقة وقوع الطلاق ولم يستخدمه كيمين يقصد به التهديد أو الشجب أو المنع أو غيره، وقد أشار إلى ذلك الإجماع ابن تيمية في الفتاوى (٣٣/٤٨-٤٦)، وذكر أن المسألة فيها ثلاثة أقوال (وستأتي في المقالة)، وذكر ابن القيم أن الطلاق المعلق فيه خمسة آراء. (انظر: إغاثة اللهفان ١٧٣، ١٧٤)، وذكر أن ليلى بن الجماء (سيأتي في التالي) قد علقت العتاق وأقرها ابن عمر وحفصة وزينب رضي الله عنهم بأن عليها كفارة يمين.

فقالوا: الطلاق يقاس على العتاق من باب الأولى. (انظر: فتاوى ابن تيمية ٣٣/٥٠).

ويفهم من فهم اللجنة الدائمة أن الإجماع غير منعقد في الطلاق المعلق بإطلاقه، فقد ورد في ردهم على سائل يسأل عن صورة طلاق معلق كيمين، فقالوا: ويلزمك كفارة يمين في أصح قولي العلماء. (انظر: فتاوى اللجنة الدائمة ٢٠/٨٦، وانظر أيضًا: بحث الطلاق المعلق في بحوث هيئة كبار العلماء رقم ١٦-٤٦٢، ٤٦٥). وسيأتي في البحث بإذن الله المزيد من الآثار عن السلف وأقوال العلماء التي تبين اختلافهم في هذه المسألة.

القول الثاني:

وهو التفرقة بين الطلاق المعلق الذي يجري مجرى القسم وهذا كاليمين وحكمه كحكم اليمين، والطلاق المعلق بالصفة (الطلاق المعلق القسمي: وهو ما لا يقصد به صاحبه إيقاع الطلاق، وإنما يستخدمه كيمين، كقوله: إن خرجت من البيت فأنت طالق، والطلاق المعلق على صفة كقوله: إن جاء رمضان فأنت طالق)، وهذا ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم ومن وافقهما.

قال ابن تيمية: أما المسألة الأولى (الحلف

بالطلاق على أمر من الأمور، يعلق الطلاق عليه)، ففيها نزاع بين السلف والخلف على ثلاثة أقوال: أحدهما: أنه يقع الطلاق إذا حنث في يمينه، وهذا هو المشهور عند أكثر الفقهاء المتأخرين، حتى اعتقد طائفة منهم أن ذلك إجماع، ولهذا لم يذكر عامتهم عليه حجة، وحجتهم عليه ضعيفة جدا، وهي: إن التزم أمرًا عند وجود شرط فلزمه ما التزمه. ثم قال: وهذا منقوض بصور كثيرة، وبعضها مجمع عليه، كنذر الطلاق والمعصية، والمباح، وكالتزام الكفر على وجه اليمين... وقال: هذا يوافق ما كانوا عليه في أول الإسلام قبل أن ينزل الله كفارة اليمين موجبة ومحرمة، والقول الثاني أنه لا يقع به طلاق، وهذا مذهب داود وأصحابه وطوائف من الشيعة، ثم قال: والقول الثالث: وهو أصح الأقوال، وهو الذي يدل عليه الكتاب والسنة والاعتبار: أن هذه يمين من أيمان المسلمين، فيجري فيها ما يجري في أيمان المسلمين وهو الكفارة عند الحنث، إلا أن يختار الحالف إيقاع الطلاق فله أن يوقعه ولا كفارة.

وقال: وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه في الصحيح أنه قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير، وليكفر عن يمينه». وهذا يتناول (أيمان) جميع المسلمين لفظًا ومعنى، ولم يخصه نص ولا إجماع ولا قياس بل الأدلة الشرعية تحقق عمومه.

ثم ذكر شيخ الإسلام صيغ الطلاق الثلاث: صيغة التنجيز كقوله أنت طالق، فهذه ليست يمينا ولا كفارة في هذا باتفاق المسلمين. والثاني: صيغة قسم: كما إذا قال: الطلاق يلزمني لأفعلن كذا، فهذه يمين باتفاق أهل اللغة والفقهاء، وللعلماء في هذه الأيمان ثلاثة أقوال.

والثالث: صيغة تعليق (ثم قسم صيغة التعليق إلى: ما قصد به اليمين فهي كاليمين وفيها الكفارة، وما قصد به وقوع الطلاق عند الشرط وقصده إيقاع الطلاق عند الصفة فهذا يقع باتفاق السلف) (انظر الفتاوى الكبرى لابن تيمية ت ٧٢٨ ٣/ ٢٤١ - ٢٤٧).

وقال ابن القيم: إلزام الحالف بهما (أي الطلاق والعتاق) إذا حنث، بطلاق زوجته وعتق عبده، مما حدث الافتاء به بعد انقراض عصر الصحابة فلا يُحفظ عن صحابي في صيغة القسم إلزام الطلاق به أبدًا، وإنما المحفوظ إلزام الطلاق بصيغة الشرط والجزاء الذي قصد به الطلاق عند وجود الشرط.

ثم ذكر أدلة من قال بوقوع الطلاق المعلق، فذكر أثر ابن عمر رضي الله عنهما عن نافع: قال: طلق رجل امرأته... (سبق الحديث بتخريجه).

وفرق بين نوعي الطلاق المعلق: القسمي، وبالصفة. وقال: وأما من يفصل بين القسم المحض والتعليق الذي يقصد به الوقوع فإنه يقول بالآثار المروية عن الصحابة كلها في هذا الباب، فإنهم صح عنهم الإفتاء بالوقوع في صور، وصح عنهم عدم الوقوع في صور، والصواب ما أفتوا به في النوعين..

وذكر أثر ابن مسعود رضي الله عنه: في رجل قال لامرأته... (وقد سبق)، وقال إنه منقطع. وأثر ابن عباس رضي الله عنهما في رجل قال لامرأته: هي طالق إلى سنة، قال يستمتع بها إلى سنة. وأثر أبي ذر رضي الله عنه أن امرأته ألحت عليه في سؤاله عن ليلة القدر، فقال: إن عدت سألتني فأنت طالق. قال: وهذه جميع الآثار المحفوظة عن الصحابة في وقوع الطلاق المعلق. وأما الآثار عنهم في خلافه، فصح عن عائشة وابن عباس وحفصة وأم سلمة - رضي الله عنهم - فيمن حلفت بأن كل مملوك لها حر إن لم تفرق بين عبدها وبين امرأته، أنها تكفر عن يمينها ولا تفرق بينهما. (انظر إعلام الموقعين ٣/ ٤٨ - ٥١).

وللحديث بقية، والحمد لله رب العالمين.



اللمحات النورانية في فقه المناسبات القرآنية

الْحَمْدُ لله الرحيم الرحمن الذي علم القرآن وخلق الإنسان وعلمه البيان، وأصلي وأسلم على المبعوث بجوامع الكلم وروائع البيان محمد النبي المصطفى العدنان وعلى آله وصحبه والتابعين بإحسان.

إعداد/ أ.د/ عبدالحميد هنداوي

الأستاذ بكلية دار العلوم

وبعد؛ فهذه سلسلة من المقالات تدور - إن شاء الله تعالى - حول البلاغة القرآنية في مختلف صورها.

ومن ذلك المناسبة بين الآيات والسور؛ وهو من أعظم وجوه بلاغة القرآن، وأجلّها عند أهلها قدرا، وأرفعها شأنا وذكرا، ما بين كلماته وآيه وسوره من التناسب والتلاؤم والترابط الذي يقف عليه النابهون من أهل العلم والتدبر لصعوبة مسلكه، وحاجة طالبه إلى تمام الفطنة وكمال التيقظ، والإحاطة بجميع آي السور وألفاظها ومقاصدها.

ومن المواضع التي تأملت سرَّ المناسبة فيها فيسرها الله لي وألانها:

قوله تعالى: « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ » (البقرة: ١٤٣).

حيث تأملت المناسبة في وقوع هذه الآية موقعها من سورة البقرة فاتضح لي فيها عدة وجوه:

الوجه الأول: وهو بيان موقعها في السورة

هو أن هذه الآية هي وسط سورة البقرة تماما فهي الآية رقم ١٤٣ من هذه السورة التي تعداد آياتها ٢٨٦؛ وقد دل ذلك على غاية الإحكام؛ حيث إن هذه الآية إنما تتحدث عن الوسطية.

الوجه الثاني: وهو بيان المناسبة المعنوية في الآية بالنظر لسابقتها ولاحقتها، وهو أننا إذا نظرنا إلى الآية السابقة، وهي قوله تعالى:

« سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ » (البقرة: ١٤٢).

وجدناها تذكر شبهة يخبر رب العزة جلَّ وعلا أن السفهاء من الناس سوف يثيرونها بشأن تحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة فيقولون: "مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا"؟



وحينئذ جاء جواب الله تعالى عن هذه الشبهة واضحا بقوله تعالى: « قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ » (البقرة: ١٤٢).

أي ليس لأحد أن يعترض أو يسأل عن مراد الله تعالى من توجيهه عباده إلى أي جهة يشاء؛ فهو سبحانه مالك الجهات كلها، مشارقها ومغاربها؛ وهو يهدي من يشاء من عباده إلى الوجهة التي يريدها التي هي صراطه المستقيم.

ثم أتبع ذلك سبحانه ببيان الحكمة

من ذلك التحويل للكعبة؛ فقال سبحانه:

« وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ » (البقرة: ١٤٣).

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا: (وكذلك): الكاف للتشبيه، أي:(ومثل ذلك التحويل عن بيت المقدس إلى الكعبة لكي تكونوا متميزين في قبلتكم - جعلناكم أمة وسطا - خيارا عدولا في دينكم لكي تكونوا متميزين في دينكم غير تابعين فيه لأحد).

والتقدير: كما جعلناكم متميزين بالقبلة غير تابعين فيها لأحد جعلناكم متميزين في الدين كذلك (وسطا خيارا عدولا بلا إفراط ولا تفريط كحال الأمم السابقة).

ثم بين سبحانه العلة والحكمة في جعل أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - أمة وسطا وجعلها خير أمة أخرجت للناس - وهو أنه سبحانه قد جعل أمة محمد شهداء على الناس؛ يشهدون عليهم بالعلم الذي ورثوه من نبيهم أن رسلهم قد بلغوهم دين الله عز وجل، وأنهم قد لزمتهم الحجة الرسالية.

وجرت العادة - عقلا وشرعا وعرفا - أن الشاهد والحكم والقائم بالحجة لا يكون تابعا لمن يشهد أو يحكم عليه أو يقيم الحجة عليه.

فمن ثم لا يصلح لهذه الأمة أن تكون تابعة لغيرها من الأمم في أمر من الأمور؛ بل عليها أن تكون متميزة بدينها مستعلية به؛ ليس كبرا ولا بطرا؛ ولكن لإيمانها أنه دين الله الحق، في حين أن الناس قد ضلوا عما أنزل إليهم ربهم، وتخبطوا في ظلمات الجهل والضلال.

ومن ثم لا يصلح لها أن تتبع غيرها في شيء - في القبلة أو غير ذلك؛ فكما جعل الله تعالى هذه الأمة مستقلة بقبلتها غير تابعة لأحد - جعلها كذلك مستقلة بدينها - وسطا خيارا عدولا - غير تابعة لأحد؛ وذلك لتصلح لقيامها بالشهادة على الناس التي هي صورة من صور القوامة عليهم؛ تلك القوامة المنبثقة من خيرية هذه الأمة على من سواها من الأمم؛ وهو ما بينه ربنا سبحانه في قوله تعالى:

« كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ » (آل عمران: ١١٠).

وهذا التعليل بضرورة استقلالية الأمة وعدم تبعيتها لغيرها هو ما أكده القرآن الكريم في مواضع عديدة ينهى فيها عن موالاة غير المسلمين أو اتباع غير سبيل المؤمنين في آيات عديدة، كما أكدتها السنة النبوية كذلك في أحاديث عديدة ينهى فيها النبي - صلى الله عليه وسلم - عن اتباع المشركين أو أهل الملل السابقة أو غير سبيل المؤمنين، وقد حذر النبي - صلى الله عليه وسلم - من ذلك أشد التحذير.

ومن ثم يتضح لنا حسن موقع الآية بين جاراتها السابقة واللاحقة؛ كما تبدو متألقة في هذا السياق:

« سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ » (البقرة: ١٤٢ - ١٤٤).

ومن ذلك أيضا:

تأمل مناسبة توسط آية المحافظة على الصلاة وسط أحكام الطلاق والعدة:

قال تعالى: « حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ » (البقرة: ٢٣٨).

« لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧) حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ (٢٣٩) وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠) وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ

لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » (البقرة: ٢٣٦ - ٢٤٢).

ففي مناسبة توسط هذه الآية أحكام الطلاق والعدة وجوه منها:

١. لفت العباد إلى اللجوء إلى الله لطلب الهداية والتيسير منه في كل خطب يعرض لهم - لا سيما ما كان مثل هذا؛ حيث ينفرط عقد الأسرة، وينحل نظامها.

٢. لفت العباد إلى أهمية العبادة وقيمة الصلاة، وأنه لا ينبغي أن تشغلهم أمور حياتهم الخاصة بهم عن أمور دينهم، وعبادة ربهم.

٣. لفت العباد إلى أن أمور الدين والدنيا كلها تمثل منظومة واحدة في دين الله تعالى؛ فالمسلم سواء في أمور دينه ودنياه إنما يمتثل أوامر الله ويلتزم شرائعه سواء كانت في أمور حياته كزواجه وطلاقه وبيعه وشرائه..الخ، أو في أمور دينه وعبادة ربه كصلاته وصيامه...وسائر الأحكام.

ومن ذلك أيضا تأمل المناسبة في اختصاص كل آية بما اختصت به من التقديم والتأخير في قوله تعالى: « كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ » (آل عمران: ١١٠)

مع قوله تعالى: « لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ اللَّهِ ءَانَآءَ الَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي الْخَيْرَٰتِ وَأُولَٰٓئِكَ مِنَ الصَّٰلِحِينَ » (آل عمران: ١١٤).

نلاحظ أن الآية الثانية التي تحدثت عن أهل الكتاب قد جاءت على الأصل المقرر في تقدم الإيمان على ما سواه من الأعمال؛ فهو الأصل الأصيل الذي لا يصح عمل بدونه؛ فمن ثم جاءت الآية على هذا النسق: « يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ » (آل عمران: ١١٤).

أما الآية الأولى التي تقرر خيرية هذه الأمة المحمدية؛ فقد جاءت على عكس هذا الترتيب: « كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » (آل عمران: ١١٠)

فما السر في الخروج على الأصل هنا بمخالفة الترتيب بتقديم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله؟

نلاحظ أن هذه الآية قد نعتت أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - بكونها خير أمة أخرجت للناس.

وهذه الخيرية لا بد لها من مؤهلات قد استحقت هذه الأمة صفة الخيرية لأجلها.

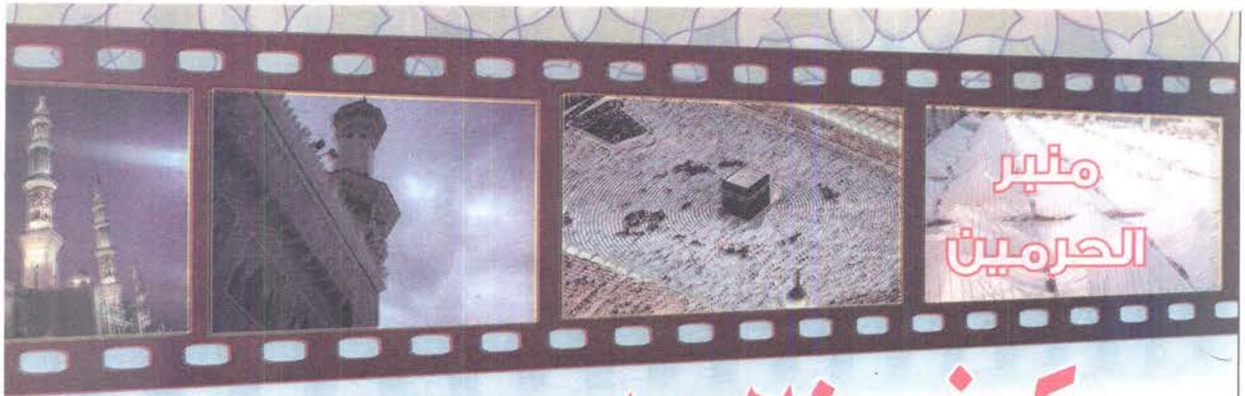
وهذه المؤهلات هي بلا شك ما كلف الله تعالى به هذه الأمة من مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام على الناس؛ فهي أمة صاحبة رسالة متممة لرسالة الأنبياء؛ فالله تعالى لم يجعل في هذه الأمة نبيا بعد محمد - صلى الله عليه وسلم - ولكن جعل العلماء هم ورثة الأنبياء في هداية الخلق، وتبليغهم دين ربهم، وإقامتهم على صراطه المستقيم.



ومن ثم ناسب هذه الآية أن يتبع الله تعالى وصف الأمة بالخيرية بوجه كونها كذلك؛ وهو كونها آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر؛ فهذا هو سر خيريتها مع كونها مؤمنة بالله تعالى، ولم يكن من المناسب أن يقدم في حقها - هنا - وصف الإيمان بالله تعالى؛ لأن كل الأمم تشاركها فيه؛ فلا يكون ميزة لها؛ ومن ثم لا يصلح تعليلا لخيريتها.

ولا يعترض بكونه ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في وصف أهل الكتاب؛ وذلك لأنهم وإن كانوا مكلفين به؛ لكنه ليس هو الصفة المائزة لهم؛ بل هذه الصفة لأمة محمد لأنها هي التي تكمل رسالة الأنبياء؛ أما بنو إسرائيل فقد كان فيهم أنبياء كثيرون؛ ولا نبي بعد محمد - صلى الله عليه وسلم.

والآن بعد عرض هذه الأمثلة الدالة على قوة التناسب والتلاؤم والترابط بين الآيات، واتحاد مراميها ومقاصدها أرجو أن أكون قد وفقت أن أوقف القارئ الكريم على مدى ترابط الكتاب الحكيم وانسجام آياته وتناسبها وترابطها فيما بينها حتى يكون أكثر إيمانا بقوله تعالى: «كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ » (هود:١).



كيف ينال العبد رضا الله؟

الحمد لله، الحمد لله الذي كتبَ على الدنيا الفناء، ومن سلكَ الهُدى كتبَ له الرِّضا، أحمدُه -سبحانه- وشكرُه علامةُ الصدقِ والوفاء، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهٌ في الأرض وفي السماء، وأشهدُ أن سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُه ورسولُه المبعوثُ بالرحمة والهُدى، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبِه ومن اقتفَى.

إعداد/ الشيخ عبدالباري بن عواض الثبيتي
إمام المسجد النبوي

أما بعد: فأُوصيكم ونفسي بتقوى الله، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢).

رضا الله هو أعلى المطالب وأعظمُها:

رِضا الله هو أعلى المطالب وأعظمُها؛ بل هو غايةُ مطلبِ سُكَّان الجنان؛ قال الله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ٧٢).

فلا أحبَّ ولا أكرَمَ ولا أكبرَ من رضوان الله؛ بل هو الأمنيةُ الجليلة التي من أجلها بكَت عيونُ الخاشعين، وتقرَّحَت قلوبُ الصالِحين، وانتفَضَت الأقدامُ في جوف الليل.

هذا الرِّضا جعلَه الله فوقَ الجنة، زيادةً على الجنَّة؛ قال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: "إن الله يقولُ لأهل الجنة: يا أهل الجنة! يقولون: لبَّيكَ ربَّنا وسعدَيك. فيقول: هل رضِيتُم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضَى وقد أعطيتَنا ما لم تُعطِ أحدًا من خلقِك. فيقول: أنا أُعطيكُم أفضلَ من ذلك. قالوا: يا ربِّ! وأيُّ شيءٍ أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رِضواني فلا أسخَطُ عليكم أبدًا".

طلبُ مرضاة الله عليها مدارُ حياة الأنبياء والصالحين:

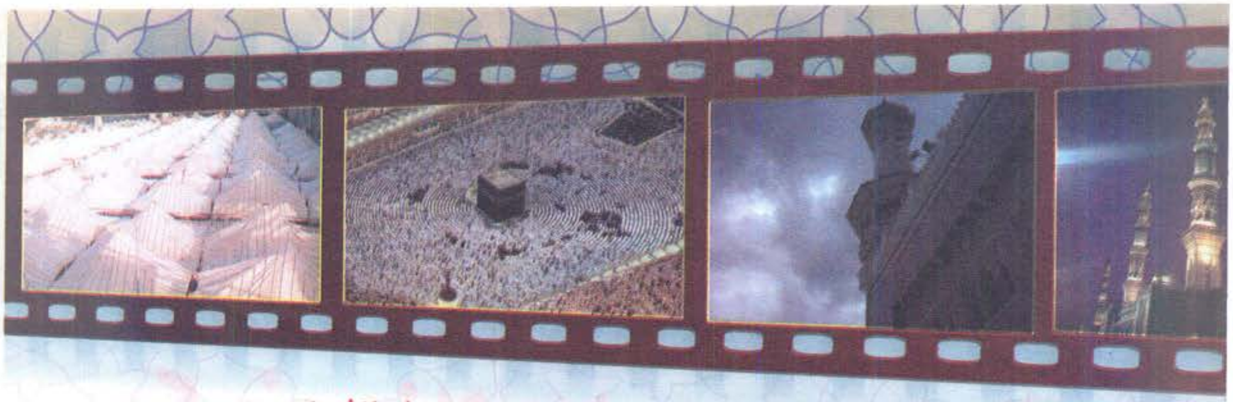
طلبُ مرضاة الله عليها مدارُ حياة الأنبياء والصالِحين؛ فموسَى - عليه السلام - يُسارِعُ إلى ما يُرضِي الله، فيقول: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ (طه: ٨٤).

وسُليمانُ - عليه السلام- يشكُرُ ربَّه بالعمل في رضاه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل: ١٩).

ونرَى هذا الأدبَ الرفيعَ من صاحبِ الأدب العظيم رسولِنا الكريم -صلى الله عليه وسلم- وهو يتأدَّبُ في الألفاظ مع ربِّه وقتَ الحُزن ابتِغاءَ مرضاته، عندما مات ولدُه: "تدمعُ العين، ويحزنُ القلبُ، ولا نقولُ إلا ما يرضَى ربُّنا، والله يا إبراهيمُ إنا بك لمحزُونون".

الهدفُ الأسمَى لرسولِنا - صلى الله عليه وسلم - طلبُ مرضاة الله، وحياتُه تدورُ حول إرضاء الله؛ يسألُ ربَّه أن يُوفِّقَه إلى العمل الذي يُرضِيه - سبحانه - فيقول: "أسألُك من العمل ما ترضَى"، ويقول: "وأرضِنا وارضَ عنَّا". (أخرجه الترمذي).

والحياةُ - عباد الله - في ظلِّ هذا الهدف وتربيةُ النفس عليه يجمعُ الدنيا والدين، ويُؤسِّسُ لتنمية شاملة، ونجاحٍ مُستمرٍّ لجميع مشروعاتنا وأعمالنا، حين نجعلُ هدفَنا الأعلى رِضوان الله.



ولا يستوي من طلبَ رضوانَ الله ومن باءَ بسَخطِه، في مسيرة الحياة ونمائها، وفي المآل والمصير. فمن طلبَ رضا الله يتَّبعُ أوامرَه ويتجنَّبُ نواهيَه، يسلُكُ سبيلَ الأبرار، يعملُ عملَ من يراه ربُّه ويُبصرُه، فيُقبلُ على طاعة ربِّه، ويُسخِّرُ في سبيله دُنياه، ويُعمِّرُ الأرضَ بإتقان وإحسان، قال تعالى: (أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ)(آل عمران: ١٦٢).

قانونٌ عادل، لا يستوي من يتَّبعُ رضوانَ الله مع من يبُوءُ بغضَب الله؛ فمن اختارَ الشرَّ سبيلاً خالَفَ أمرَ الله، وانتهَكَ حُرُماته، وتضرَّرَت الأرضُ بشُؤم معصيته وعاقبتها، وباءَ بسخَط الله.

يسعَى المؤمنون لطلب مرضاة الله بإخلاص العمل له - سبحانه - الذي يرفعُ قيمةَ العمل، ويُحسِّنُ فُرصَ الإنجاز، ويُقوِّي كفاءَةَ الإنتاج؛ قال تعالى: (وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ) (الليل: ١٩- ٢١).

وقال - صلى الله عليه وسلم -: "من فارقَ الدنيا على الإخلاص لله وحدَه لا شريكَ له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، فارَقَها والله عنه راضٍ". (أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٣٣١).

والسعيُ في طلب مرضاة الله علامةُ الصدق مع الله، وهو الذي ينفَعُ يوم القيامة؛ قال الله: (قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (المائدة: ١١٩).

نالَ الصادقون هذه المزيَّة السنيَّة؛ لأن أفعالَهم صدَّقَت أقوالَهم. فما قيمةُ صلاح الظاهر من أجل أن يراهُ الناس فيحمَدُونه، فإذا خلا بنَفسه بارزَ الله بمُخالفَة أمره.

تقديمُ رضا الله على ما سواه سلامةٌ من خِصال النِّفاق؛ قال الله تعالى: (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ) (التوبة: ٦٢)، وقال تعالى: (فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) (التوبة: ٩٦)، فمن طلبَ رضا الله فعليه أن ينخلعَ من النِّفاق والتمرُّد على أوامر الله.

الولاءُ والبراءُ أساسُ رضوان الله:

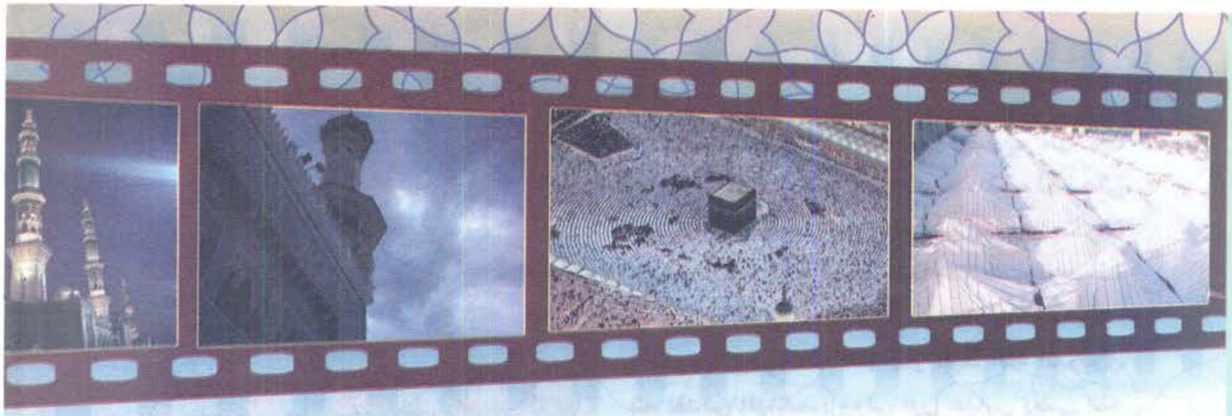
الولاءُ والبراءُ أساسُ رضوان الله، وهو: أن يُحبَّ المسلمُ لله، ويُحبَّ من أحبَّ الله وأحبَّ دينَه، ويُبغضَ من أبغضَ الله ومن حارَبَ دينَه، يُوالي المؤمنين وينصُرُهم، يكرَه المنافقين ويُبغضُهم؛ قال الله تعالى: (لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (المجادلة: ٢٢).

ومما يعين على رضا الله تعالى:

إن من شكرَ الله بقلبه وجوارحه نالَ رضاه؛ قال الله تعالى: (وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) (الزمر: ٧)، وقال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: "إن الله ليرضَى عن العبدِ أن يأكلَ الأكلةَ فيحمَدَه عليها، أو يشرَبَ الشَّربةَ فيحمَدَه عليها". (أخرجه مسلم).

والرُّكَّعُ السُّجود الوضَّاءةُ وجوههم بالوضوء، والمُشرقةُ بنور الصلاة يفوزون برضا ربِّهم؛ قال الله تعالى: (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ) (الفتح: ٢٩).

ومن تركَ شهَواته لله، وقدَّم رضا مولاه على هواه نالَ الرِّضا، وتحقَّق له ما تمنَّاه؛ قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - عن الصيام: "قال ربُّكم - عز وجل -: عبدِي تركَ شهوتَه وطعامَه وشرابَه



ابتغاءَ مرضاتي، والصومُ لي وأنا أجزي به".

أما ذكرُ الله فهو أرضى الأعمال لله، وإن الذاكرَ يجدُ الرِّضا في نفسه، والطمأنينة في صدره، والسعادةَ في قلبه.

تأمَّل قولَ الله تعالى مُخاطبًا نبيَّه -صلى الله عليه وسلم-، وهو خطابٌ للمؤمنين: (فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ) (طه: ١٣٠).

وللكلمة الطيبة جلالٌ في معناها، وجمالٌ في مبناها، وأثرٌ بالغٌ في النفوس، يرفعُك الله بها من حيث لا تحتسب؛ قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: "إن العبدَ ليتكلَّم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقي لها بالاً، يرفعُه الله بها درجات". (أخرجه البخاري).

وهل ينسَى المُسلمُ أقصرَ الطرقِ للرِّضا وأقواها وأعظمَها وأجلَّها وأجملَها؟! إنه رضا الوالدَين.

وأبلغُ من هذا: أن رضا الأم والأب مُقترنٌ برضا الربِّ؛ قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: "رضا الربِّ في رضا الوالد، وسخَطُ الربِّ في سخَط الوالد". وقال: "رضا الله في رضا الوالدَين، وسخَطُ الله في سخَط الوالدَين". (أخرجه ابن حبان من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما).

ومن رضيَ الله عنه نالَ السعادةَ والطُّمأنينة؛ قال الله تعالى: (رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ) (المائدة: ١١٩).

نالَ السعادة وقرَّت عينُه بمرضاة ربِّه، فلن يسلُك سبيلاً إلا سهَّلَه الله له، ولن يقرعَ بابًا من الخير إلا فتَحه الله له، وبارَكَ له فيه. وإذا رضيَ الله عن العبد قبِلَ اليسيرَ من عمله ونمَّاه، وغفَرَ الكثيرَ من زلَلِه ومحاه.

ومن رضيَ الله عنه نالَ الشفاعة يوم القيامة؛ قال الله تعالى: (يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا) (طه: ١٠٨، ١٠٩).

هل للفقر والغنى علاقة برضا الله أو بسخطه؟

عباد الله: يُخطئُ من يظنُّ أن للفقر والغنى علاقةً بالرِّضا أو السَّخط، فالله - عز وجل - يُعطي المالَ للمؤمن والكافر؛ قال الله تعالى: (كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا) (الإسراء: ٢٠).

فتضييقُ الرِّزق ليس دليلاً على السُّخط، والغنى لا يعني الرِّضا. فهذا قارُون أوتيَ المال الكثير والكُنوز، ولم يكن ذلك دليلاً على رضا الله، فقد خسَفَ الله به وبداره الأرض؛ قال الله تعالى: (فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ) (الفجر: ١٥، ١٦).

سوء عاقبة من التمس رضا الناس بسخط الله تعالى:

ومن الآفات -عباد الله-: حبُّ الظهور بالعمل، وابتغاءُ مرضاة الناس.

وأخطرُ من هذا: التماسُ رضا الناس بسَخط الله، ومُسايَرَةُ الناس على ضلالهم وفسقهم، وقد يرتكبُ مُحرَّمًا خوفًا من الناس، وقد يقعُدُ في مجلسِ مُنكر حتى لا يُغضبَ قريبًا أو صديقًا، أو يتركُ فريضةً حرَجًا من كلامهم؛ قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: "ومن التمَسَ رضا الناس بسَخط الله سخِطَ الله عليه وأسخَطَ عليه الناس". (أخرجه ابن حبان في صحيحه).

اللهم أصلح لنا دينَنا الذي هو عصمةُ أمرنا، وأصلح لنا دُنيانا التي فيها معاشُنا، وأصلح لنا آخرتَنا التي إليها معادُنا، واجعل الحياةَ زيادةً لنا في كل خيرٍ، والموتَ راحةً لنا من كل شرٍّ يا رب العالمين.



تحذير الداعية من القصص الواهية

قصة مفتراة على العالم الحبر عكرمة للطعن في صحيح البخاري

الحلقة (١٧٨)



إعداد/ علي حشيش

نواصل في هذا التحذير تقديم البحوث العلمية الحديثية للقارئ الكريم حتى يقف على حقيقة هذه القصة المفتراة على التابعي عكرمة رحمه الله، والذي ابتدأ الإمام الذهبي ترجمته في كتابه «تذكرة الحفاظ» (٨٧/٩٥/١) بقوله: «عكرمة الحبر العالم أبو عبد الله البربري ثم المدني الهاشمي مولى ابن عباس رضي الله عنهما».

تلك القصة التي اتخذها منكرو السنة دليلاً للطعن في صحيح الإمام البخاري، رحمه الله.

أولاً: أسباب بيان حقيقة هذه القصة

في مساء يوم الخميس ١٣ جمادى الآخرة ١٤٣٦هـ على إحدى القنوات الفضائية في برنامج «البيت بيتك»، استضاف هذا البرنامج الأستاذ الدكتور عبد الفتاح العواري، عميد كلية أصول الدين جامعة الأزهر، والأستاذ الدكتور عبد المنعم فؤاد، عميد كلية العلوم الإسلامية، للرد على افتراءات أحد المنكرين للسنة ، وبينما هما في ردهما عليه، وإذ به وقد اشتد غضبه، ورفع صوته فوق صوت قمتين من قمم مؤسسة الأزهر الشريف- حفظه الله- وطلبا منه تهدئة صوته، لكنه لم يستجب، وفي ثورته رمى العالم الحبر عكرمة مولى ابن عباس بالكذب بقصة سيعلم من تحقيقها مَن الكذاب الأشر!!

وسنبين- بإذن الله تعالى- أنه ليس بشيء، وهو مصطلح إمام الجرح والتعديل يحيى بن معين، من غير أن نمس اسمه، أو وصفه بشيء، رغم اعتدائه على أمير المؤمنين في الحديث الإمام البخاري، رحمه الله، وعلى العالم الحبر عكرمة، رحمه الله، والقاعدة التي نرد بها على افتراءات الجاهلين، وانتحال المبطلين قد أخرجها الإمام مسلم في «مقدمة الصحيح» باب «الإسناد من الدين»، حيث قال:

١- وحدثني محمد بن عبد الله بن قهزاد من أهل مَرْو، قال: سمعت عبدان بن عثمان يقول: سمعت عبد الله بن المبارك يقول:

«الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء».

قلت: وهذا رد على فريته وبدعته في قوله: «السند

فكرة شيطانية، والسند ليس دينًا»؛ ليقول من إفكه ما يشاء.

٢- وقال محمد بن عبد الله: حدثني العباس بن أبي رزمة قال: سمعت عبد الله يقول: «بيننا وبين القوم القوائم»، يعني الإسناد. اهـ.

قلت: وهذا قول الإمام عبد الله بن المبارك الثقة الثبت الفقيه العالم الجواد المجاهد والذي جمعت فيه خصال الخير؛ مات سنة إحدى وثمانين ومائة وله ثلاث وستون سنة ، وروى له الجماعة كذا في «التقريب» (٤٤٥/١)، وبيانه لأهمية علم الحديث يظهر في قوله: الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء.

وإن تعجب فعجب أن يخرج هذا المنكر في لقاءات متعددة ويعتدي على علم الإسناد ويقول: «لابد أن نهدم السور الهش الذي يسمى علم الحديث»، ثم يقول: «نهدم المعبد على دماغهم». ثم يقول: «علم الحديث تافه ولا حاجة لنا فيه». اهـ. ويكرر هذا ليلاً ونهارًا على هذه القناة وغيرها.

وأقول لك: إن قولك: «علم الحديث تافه ولا حاجة لنا فيه»، قول مردود عليك، بل قل: «علم الحديث لا حاجة لك أنت فيه». وإن شئت فقل بمفهوم الإمام ابن المبارك: «لا حاجة لك وأمثالك في الدين»، لأن «الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء». اهـ.

واجمع كل من وراءك فبيننا وبينكم القوائم لا الشتائم.

أما قولك: «لا بد أن نهدم السور الهش الذي يسمى علم الحديث».

فأنت أيها المسكين المعذور بجهلك أنت الهش، وسور الإسناد قوي متين؛ لأنه من الدين تتحطم عليه أهواء كل مبتدع ضال على مر العصور.

وسيبقى سور الإسناد شامخا تتحطم على صخوره الصلاب رؤوس أهل البدع والأهواء.

يا ناطح الجبل العالي ليوهنه
أشفق على الرأس لا تُشفق على الجبل

ولا أدري هل أنت حقًا جاهل معذور؟ أم... وأتمنى أن تكون الأولى حتى أزيل جهلك بقول الإمام المحدث الفقيه الأصولي أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦هـ في «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (٦٨/٢) قال: «نقل الثقة عن الثقة مع الاتصال حتى يبلغ النبي صلى الله عليه وسلم خص الله به المسلمين دون سائر أهل الملل كلها وأبقاه عندهم غضًا جديدًا على قديم الدهور منذ أربعمائة عام وخمسين عامًا في المشرق والمغرب والجنوب والشمال يرحل في طلبه من لا يحصي عددهم إلا خالقهم إلى الآفاق البعيدة ويواظب على تقييده من كان قريبًا، قد تولى الله تعالى حفظه عليهم والحمد لله رب العالمين».

قلت: قال هذه الكلمة التي يعجز الذهب أن يزنها قبل موته بست سنوات بمقارنة ما بيّنا آنفًا من التاريخ، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة إلا شهرًا، وقد وُلد بقرطبة في الجانب الشرقي من الأندلس بعد صلاة الصبح من آخر يوم من رمضان سنة ٣٨٤هـ.

قلت: ولا زال علم الإسناد غضًا جديدًا على قديم الدهور منذ ألف عام وأربعمائة عام وستة وثلاثين عامًا في المشرق والمغرب والجنوب والشمال يرحل في طلبه من لا يحصي عددهم إلا خالقهم إلى الآفاق البعيدة ويواظب على تقييده من كان قريبًا حتى بفضل الله أنشئت له في الجامعات أقسام فقسم الحديث قسم عظيم من أقسام كليات أصول الدين في جامعة الأزهر وغيرها من الجامعات قد تولى الله حفظه عليهم، والحمد لله رب العالمين.

لذلك نقل القاسمي في «قواعد التحديث» (ص٢٠١) قول أبي علي الجياني: «خصَّ الله تعالى هذه الأمة بثلاثة أشياء لم يعطها مَنْ قبلها: الإسناد، والأنساب، والإعراب».

وقال العترفي «منهج النقد» (ص٣٦): «وفي العصر الحديث اعترف الباحثون الأجانب للمحدثين بدقة عملهم وأقروا بحسن صنيعهم، واتخذ علماء التاريخ من قواعدهم أصولاً يتبعونها في تقصي الحقائق التاريخية ووجدوا فيها خير ميزان توزن به وثائق التاريخ، وضرب مثلاً لذلك كتاب «مصطلح التاريخ» للدكتور أسد رستم حيث تجده يعتمد كلام الحافظ ابن الصلاح في «علوم الحديث» بحروفه». اهـ.

قلت: فإن تعجب فعجب كيف سوّلت له نفسه أن يفتري هذه الافتراءات ويدّعي أنه سيهدم السور الذي يسمى علم الحديث!! أتهدم دينك؟! أتهدم الإسناد الذي بيّنا أنه في أصله خصيصة فاضلة

لهذه الأمة، ليست لغيرها من الأمم؟!

أعَلى دينك تعتدي؟! أم للباس أهل البدع والضلال والانحلال ترتدي؟!

هلا سألتك نفسك يومًا لماذا تبغض أهل الحديث وأنت تفتري على إمامهم أمير المؤمنين في الحديث الإمام البخاري وتقول: «البخاري مليء بالعفن الفكري»؟!

هلا سألت نفسك لماذا تقول: أريد هدم السور الذي يسمى علم الحديث؟! ولماذا نُزِعَتْ حلاوة علم الحديث من قلبك؟!

إن لم تستطع الإجابة فاستمع إلى الإمام الحافظ الحاكم أبي عبد الله في «معرفة علوم الحديث» (ص٤) يقول: «سمعت أبا علي الحسن بن علي الحافظ يقول: سمعت جعفر بن محمد بن سنان الواسطي يقول: سمعت أحمد بن سنان القطان يقول: ليس في الدنيا مبتدع إلا وهو يبغض أهل الحديث، وإذا ابتدع الرجل نُزِعَ حلاوة الحديث من قلبه». اهـ.

قلت: ولذلك يردد افتراءات منكري السنة من المستشرقين وأهل البدع والضلال ويطعن في العالم الحبر عكرمة رحمه الله ليتخذ من ذلك سبيلاً للطعن في حديث حد الردة: «مَن بدَّل دينهُ فاقتلوه». والذي أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، حتى ينال غايته فيما يسمى بحرية الاعتقاد والتي تؤدي إلى الارتداد والزندقة والإلحاد والتشكيك في ثوابت الدين، من أجل ذلك كان لا بد من تصحيح هذه الأفكار المغلوطة والمفاهيم المعادية والتي غرت بها بعضُ القنوات، وألسنة السوء، الكثير من السذج والبسطاء.

ولما كان في كل لقاء يطعن في العالم الحبر عكرمة رحمه الله بقصة يتخذها دليلاً للطعن في الثوابت، فهذا يحتم علينا تخريج وتحقيق هذه القصة الواهية وبيان ثبوت هذا الحديث، لتمييز الطيب من الخبيث.

ثانيا القصة المفتراة على عكرمة رحمه الله وتخريجها

١- أخرج الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن أبي خيثمة زهير بن حرب المتوفى سنة تسع وسبعين ومائتين في كتابه «التاريخ الكبير» (١٩٤/٤) (ح٢٣٦٦) قال: حدثنا أبو معمر إسماعيل بن إبراهيم قال: حدثنا جرير، عن يزيد بن أبي زياد قال: دخلت على عليّ بن عبد الله بن عباس وعكرمة مقيد على باب الحش، قال: قلت: ما لهذا هكذا؟

قال: إنه يكذب على أبي. اهـ.

٢- وأخرج الحافظ ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١١٣/٤١) قال: أخبرنا أبو غالب وأبو عبد الله ابنا أبي علي ابنا البنا قالا: أخبرنا أبو الحسن بن خزفة، أنبأنا محمد بن الحسن الزعفراني حدثنا ابن أبي خيثمة، أخبرنا إسماعيل بن إبراهيم قال: حدثنا جرير عن يزيد بن أبي زياد قال: دخلت على عليّ بن عبد الله بن عباس وعكرمة مقيد على باب الحش، قال: قلت: ما لهذا هكذا؟

قال: إنه يكذب على أبي». اهـ.

فائدة: نخرج الروايات كاملة دون اختصار لبيان الصناعة الحديثية في السند وغريب الألفاظ في المتن.

٣- قال ابن قتيبة في «المعارف» (٤٥٦/١): وروى جرير عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث قال: دخلت على علي بن عبد الله بن عباس وعكرمة موثق على باب كنيف فقلت: أتفعلون هذا بمولاكم؟ قال: إن هذا يكذب على أبي. اهـ.

٤- وقال ياقوت الحموي في «معجم الأدباء» (١٦٢٩/٤) (ح٧٤٠): «وقال عبد الله بن الحارث: دخلت على عليّ بن عبد الله بن عباس وعكرمة موثق على باب الكنيف، فقلت: أتفعلون هذا بمولاكم؟ فقال: إن هذا يكذب على أبي». اهـ.

ثالثا: التحقيق:

١- من غريب ألفاظ القصة:

العلاقة بين الخلاء والكنيف: قلت : وهذه قد حسمها الإمام النووي وغيره ؛ فانتهى في شرحه على «صحيح مسلم»: إلى أن «الخلاء، والكنيف، والمرحاض، كلها موضع قضاء الحاجة». اهـ.

٢- أسباب البحث عن غريب الألفاظ لباب الحش، وباب الكنيف، وتبين أنها موضع قضاء الحاجة.

ونقل الإمام النووي في «شرح مسلم» قول الإمام أبي سليمان الخطابي: «الخبث والخبائث، يريد ذكران الشياطين وإناثهم». اهـ.

ونتساءل: هل يليق بعلي بن عبد الله بن عباس وهو الذي قال فيه الحافظ ابن حجر في «التقريب» (٤٠/١): «علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي أبو محمد ثقة عابد». اهـ.

حتى ذكر الإمام المزي في «تهذيب الكمال»

(٤٦٨١/٣٤٥/١٣): «كان أكثر صلاة، وكان يدعى السَّجاد». اهـ.

هل يليق به أن يُقَيِّدَ العالمَ الحبر عكرمة مولى أبيه على باب الكنيف ويتركه موثقًا على باب الكنيف بالسلاسل والأغلال في مجمع الخبث الخبائث وكل من دخل على العابد الثقة علي بن عبد الله بن عباس يسأله: أتفعلون هذا بمولاكم؟

قلت: وهذه قرينة تدل على أنَّ هذه القصة باطلة، كما سنبين من تحقيق السند- وإن تعجب فعجب كيف سولت لمجروح سيئ الحفظ أن يذكر هذا الخبر المنكر عن علي بن عبد الله بن عباس الثقة العابد وعلى مولاه العالم الحبر عكرمة الذي نقل الحافظ ابن حجر في «هدي الساري» (ص٤٥٠) قول أبي عبد الله محمد بن نصر المروزي فيه قال: «أجمع عامة أهل العلم على الاحتجاج بحديث عكرمة واتفق على ذلك رؤساء أهل العلم بالحديث من أهل عصرنا منهم أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه وأبو ثور ويحيى بن معين ولقد سألت إسحاق عن الاحتجاج بحديثه فقال عكرمة عندنا إمام أهل الدنيا وقال علي بن المديني- شيخ البخاري-: كان عكرمة من أهل العلم ولم يكن في موالي ابن عباس أغزر علمًا منه». اهـ.

٣- علة هذه القصة: يزيد بن أبي زياد.

يتبين من التخريج الذي ذكرناه آنفًا أن هذا الخبر الذي جاءت به هذه القصة خبر غريب انفرد به يزيد بن أبي زياد، وهو مذكور باسمه واسم أبيه من غير صفة أخرى من نسب أو كنية أو لقب، وهم بهذا أربعة اتفقت أسماؤهم وأسماء آبائهم.

وهذا في علوم الحديث يسمى «المتفق والمفترق»، ذكره السيوطي في «تدريب الراوي» (٣١٦/١) النوع (٦٤) قال: «المتفق والمفترق من الأسماء، وهو متفق خطًا ولفظًا وافترقت مسمياته وقد زلق بسببه غير واحد من الأكابر وهو أقسام: الأول: من اتفقت أسماؤهم وأسماء آبائهم».

قلت: والأربعة: الأول: مدني ثقة، والثاني: شامي ضعيف جدًا، والثالث: كوفي شيعي ضعيف، والرابع: كوفي لا تقوم به حجة، وقد يحسبه من لا دراية له أنه هين، ولكنه عند أهل الصناعة الحديثية عظيم.

٣- يزيد بن أبي زياد في هذا الخبر الذي جاءت به القصة المفتراة على العالم الحبر عكرمة:

أ- روى عنه: جرير كما هو مبين من تخريج ابن أبي خيثمة للخبر (جرير عن يزيد بن أبي زياد).

ب- وروى عن: عبد الله بن الحارث كما هو مبين من تخريج ابن قتيبة (يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث).

والبحث يتبين أن الراوي يزيد بن أبي زياد الذي يتحقق فيه هذا الشرطان هو ما أورده الحافظ المزي في «تهذيب الكمال» (٧٥٨٥/٣١٤/٢٠) قال: «يزيد بن أبي زياد القرشي الهاشمي أبو عبد الله الكوفي مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل روى عن عبد الله بن الحارث بن نوفل وآخرين، وروى عنه: جرير بن عبد الحميد وآخرين: قال علي بن المنذر عن محمد بن فضيل: كان من أئمة الشيعة الكبار».

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل، عن أبيه: لم يكن بالحافظ، وقال في موضع آخر حديثه ليس بذاك.

وقال عباس الدوري عن يحيى بن معين: «لا يحتج بحديثه».

وقال أبو زُرعة: «لا يحتج به».

وقال أبو حاتم: «ليس بالقوي».

وقال إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني: سمعتهم يُضعفون حديثه.

وقال أبو أحمد بن عدي: «هو من شيعة أهل الكوفة».

٤- وذكره الحافظ ابن حجر في «التهذيب» (٢٨٧/١١) ونقل أقوال الأئمة:

قال ابن سعد: اختلط في آخر عمره فجاء بالعجائب.

وقال الدارقطني: لا يخرج عنه في الصحيح ضعيف يخطئ كثيرًا ويلقن إذا ما لقن.

وقال النسائي: ليس بالقوي.

وقال الحاكم أبو أحمد: أبو عبد الله يزيد بن أبي زياد ليس بالقوي عندهم، وقال أبو أسامة: لو حلف لي خمسين يمينًا قسامة ما صدقته، يعني في هذا الحديث (حديث الرايات)، والذي سنبين قصته- إن شاء الله-. ثم بين الحافظ ابن حجر شدة ضعفه فقال: «وقال ابن المبارك ارم به كذا هو في تاريخه، ووقع في أصل المزي أكرم به وهو تحريف وقد نقله على الصواب أبو محمد بن حزم في المحلى وأبو الفرج بن الجوزي في الضعفاء له». اهـ.

٥- وقال الحافظ ابن حجر في «التقريب» (٣٦٥/٢):

يزيد بن أبي زياد الهاشمي مولاهم الكوفي، ضعيف، كبر فتغير، صار يتلقن، وكان شيعيًا، مات سنة ست وثلاثين ومائة. اهـ.

٦- قال الإمام الحافظ ابن حبان في «المجروحين» (٩٩/٣): «يزيد بن أبي زياد مولى بني هاشم لما كبر ساء حفظه وتغير فكان يتلقن ما لقن، فوقع المناكير في حديثه من تلقين غيره إياه، وإجابته فيما ليس من حديثه لسوء حفظه». اهـ.

٧- وقال الحافظ ابن رجب في «شرح علل الترمذي» (١٤٠/١): «ومِمَّنْ يَضْطَرِبُ في حديثه يزيد بن أبي زياد الكوفي». اهـ.

قلت: وهذا طعن آخر في يزيد بن أبي زياد وهو يجعل خبره مردود وهو النوع التاسع عشر من علوم الحديث كما في «تدريب الراوي» (٢٦٢/١): «وهو الذي يُرْوَى على أوجه مختلفة من راوٍ واحد مرتين أو أكثر». اهـ.

وبتطبيق ذلك على هذا الخبر الذي جاءت به القصة:

١- ففي رواية ابن أبي خيثمة عن جرير عن يزيد بن أبي زياد قال: دخلت على عليّ بن عبد الله بن عباس وعكرمة مقيد على باب الحش.. القصة.

٢- وفي رواية ابن أبي قتيبة عن جرير عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث قال: دخلت على علي بن عبد الله بن عباس وعكرمة موثق على باب كنيف.. القصة.

قلت: انظر إلى الاضطراب من الذي دخل على علي بن عبد الله بن عباس؟

قلت: لذلك قال الإمام الحافظ ابن حبان في «الثقات» (٢٢٩/٥/٤٦٣٤): «ولا يجب على من شم رائحة العلم أن يعرج على قول يزيد بن أبي زياد حيث يقول: دخلت على علي بن عبد الله بن عباس وعكرمة مقيد على باب الحش قلت: من هذا؟ قال: إن هذا يكذب على أبي». ثم قال ابن حبان: ومن أمحل المحال أن يُجرح العدل بكلام المجروح، لأن يزيد بن أبي زياد ليس ممن يحتج بنقل حديثه ولا بشيء يقوله. اهـ.

قلت: ولقد نقل الحافظ ابن حجر في «هدي الساري» (ص٤٥٠): «قال جعفر الطيالسي عن يحيى بن معين: إذا رأيت إنسانًا يقع في عكرمة فاتهمه على الإسلام». اهـ.

قلت: فكيف سولت لك نفسك ليلاً ونهارًا على الفضائيات الوقوع في عكرمة الحبر العلامة أبي عبد الله، وتكرر قصة مفتراة لقلة علمك وعدم درايتك بعلوم الرجال؛ أوقعتك في الأوحال، ورددت قول شيعي محترق لا يحتج به، سيئ الحفظ، يخطئ كثيرًا، يلقن إذا ما لقن.

وإن تعجب فعجب كيف يحتج بقول شيعي محترق يقع في الحبر العالم عكرمة بقصة مكذوبة مفتراة عليه كما بينا آنفًا.

لماذا لا تتعلم قبل أن تتكلم؟ ولقد بوّب الإمام البخاري في «صحيحه» في كتاب «العلم» الباب (١٠): باب «العلم قبل القول والعمل» ولكن ماذا أصنع لك وأنت تبغض أهل الحديث واشتد بغضك على أمير المؤمنين في الحديث الإمام البخاري الذي لا يعرف قدره إلا الأئمة من تلاميذه في هذا الشأن فقد ثبت أن الإمام مسلم بن الحجاج جاء إلى الإمام محمد بن إسماعيل البخاري فقبل بين عينيه وقال: دعني حتى أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين وسيد المحدثين وطبيب الحديث في علله. اهـ. كذا في «هدي الساري» (ص٥١٣).

قلت: كيف سولت لك نفسك لتطعن في أمير المؤمنين في الحديث الإمام البخاري بالطعن في الحبر الإمام عكرمة والذي روى له في صحيحه، وتطعن فيه بقصة منكرة راويها شيعي من أكبر أئمتهم في الضلال، حتى بلغ من ضلاله أنه طعن في صحابة النبي صلى الله عليه وسلم بقصة سأبين حقيقتها- إن شاء الله- في العدد القادم، حتى نستبين حقيقة هذا الشيعي المبتدع الضال المجروح والذي اتخذه هذا الجاهل بالإسناد بل المنكر للإسناد ليجرح في العالم الحبر عكرمة الثقة الثبت، ليتخذ من ذلك سبيلاً للطعن في الإمام البخاري الذي روى له في صحيحه ولا زال يجادل بهذا الباطل حتى ساعة كتابة هذا السطر الأخير ليلة السبت ٦ رجب، إلى أن قال: «التراث قمامة، والدين ليس بعلم»!!

قلت: فأبشر بقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (الحج: ١٠).

هذا ما وفقني الله إليه، وسنواصل الرد في أعداد قادم- إن شاء الله-، وهو وحده من وراء القصد.

باب العقيدة

ظهور البدع في العقائد..

بدعة الخوارج والتحذير منها



الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

بدأنا في العدد الماضي بذكر مخاطر البدع العقدية، وتتمة لهذا الموضوع نعرض لأصول بعض الفرق المبتدعة، ونبدأ في هذا العدد بإيضاح بدعة الخوارج ، ونسأل الله الثبات على الحق، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

إعداد/ د. عبد الله شاكر

بدعة الخوارج:

التعريف بهم:

أطلقت كلمة خوارج على أولئك النفر الذين خرجوا على علي بن أبي طالب رضي الله عنه في سنة ستٍّ وثلاثين من الهجرة النبوية بعد قبوله التحكيم عقب معركة «صفين»، إذ اعتبر هؤلاء التحكيم خطيئة تؤدي إلى الكفر، ومن ثم طلبوا من علي أن يتوب من هذا الذنب، وانتهى الأمر بأن خرجوا من معسكره، وقد أطلق على الخوارج أيضا اسم «الشُراة» وربما يكونون هم الذين وصفوا أنفسهم بذلك، كما ورد في قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ) (سورة البقرة:٢٠٧)، وسمُوا أيضا بالحرورية لانحيازهم في أول أمرهم على قرية «حَروراء» بالقرب من الكوفة، كما سمُوا أيضا بالمُحكَّمة لرفعهم شعار «لا حكم إلا لله»، والتفافهم حوله. ومهما يكن من شيء، فإن اسم «الخوارج» في معناه الأول الذي يشير على الانشقاق ومفارقة الجماعة أصبح الاسم السائر على هذه الجماعة».

وخروجهم على سيدنا علي هو العلة في تسميتهم بهذا الاسم، فالخوارج هم أولئك النفر الذين خرجوا على عليٍّ بعد قبوله التحكيم في موقعة صفين ، وحتى أنهم قتلوا سيدنا عليًا فيما بعد، وهذا سمتهم في كل عصر يخرجون فيه فهم يدعون التحكيم إلى كتاب الله ويرفعون السيوف ويقتلون أفضل المسلمين وعلمائهم وأئمتهم وهذا ما عليه الخوارج في كل قرن من القرون.

وتفرعت منذ ذلك الحين فرق الخوارج واختلفوا فيما بينهم فمنهم الحرورية والأزارقة والنجدات والصفرية والعجاردة والإباضية، وعديد من فرق الخوارج المتباينة خرجت ولا

تزال تخرج حتى يخرج آخرهم مع المسيح الدجال كما ذكر رسول الله ﷺ في الحديث الشريف:

عن ابن عمر، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ينشأ نشء يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، كلما خرج قرن قطع»، قال ابن عمر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « كلما خرج قرن قطع « أكثر من عشرين مرة» حتى يخرج في عراضهم الدجال «.

ومن أهل العلم من يرجح بداية نشأة الخوارج إلى زمن النبي ويجعل أول الخوارج ذو الخويصرة الذي اعترض على الرسول في قسمة ذهب كان قد بعث بها سيدنا علي من اليمن، ويتضح ذلك من الحديث النبوي الشريف الذي رواه الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري.

عن أبي سعيد الخدري قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسما أتاه ذو الخويصرة، وهو رجل من بني تميم، فقال: يا رسول الله اعدل.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « اللَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ، قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ، قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّه، ائْذَنْ لِي فِيهِ أَضْرِبَ عُنُقَهُ، قَالَ: دَعْهُ، فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يُحَقِّرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَضِيِّهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، وَهُوَ الْقِدْحُ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى قُذَذِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ، إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ، أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ، يَخْرُجُونَ عَلَى خَيْرِ فِرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ».

قَالَ أَبُو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل فالتمس فأتي به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي نعته.

فذو الخويصرة أول خارجي خرج في الإسلام، وذلك لأنه رضي برأي نفسه ولم يرض بحكم الله ورسوله بل قال لنبي الله اعدل! أي احكم بالعدل فقال له النبي: ومن يعدل إن لم أعدل.

وكانت بدعتهم أنهم يكفّرون بالذنوب؛ ويحملون بعض الآيات التي نزلت في الكفار على المؤمنين أو على بعض عصاة الموحدين.

وبدعة هؤلاء في الحقيقة تتعلق بالعقيدة؛ لأنهم يكفرون المسلمين بالذنوب ويخلدون العاصي في النار، ويخرجون المسلم بالمعصية من الإسلام، ويستحلون دم المسلم الذي أذنب، ويقاتلون المسلمين، وهذا ذنب كبير وبدعة شنيعة.

أنكر عليهم في ذلك أئمة السلف - رحمهم الله تبارك وتعالى - وهؤلاء أنكروا عفو الله عز وجل بقولهم هذا، وأنكروا تجاوز رب العالمين -سبحانه وتعالى- عن الذنوب، كما أنكروا أحاديث الشفاعة التي فيها: أن الله تعالى يغفر الذنوب ويتجاوز عن السيئات، ويقبل التائب ويعفو عن المسيء، وأنكروا شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنكروا شفاعة الملائكة الكرام في أهل التوحيد، وبهذا يكونون وقعوا في أمر عظيم فارقوا فيه

إن سمت الخوارج في كل عصر أنهم يدّعون التحاكم إلى كتاب الله؛ ثم يرفعون السيوف ويقتلون المسلمين.

العقيدة الصحيحة.

ومع كل ذلك؛ فقد وصف هؤلاء الناس في الأحاديث بكثرة الأعمال كما سبق أن ذكرنا في حديث ذو الخويصرة.

أما عن مناقشة أهم ما هم عليه باختصار فإننا نقول:

ذكْر أهم مبادئهم:

المبدأ الأول: صحة خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وعثمان رضي الله عنه في أول ولايته، وكان يجب عزله عندما غير طريقة أبي بكر وعمر وقدم أقاربه!!

المبدأ الثاني: صحة خلافة علي رضي الله عنه إلى وقت التحكيم؛ ولما أخطأ في التحكيم كفّروه مع الحكمين، وطعنوا في أصحاب الجمل.

المبدأ الثالث: الخلافة يجب أن تكون باختيار حُر بين المسلمين، وسواء كان المختار قرشيًّا أو عبدًا حبشيًّا، وليس من حق الإمام أن يتنازل أو يحكم لأحد؛ وإنما عليه أن يأخذ بما يجب عليه نصًّا ظاهرًا واضحًا - هكذا قالوا - من الكتاب ومن السنة، وقالوا: يجب عليه أن يخضع خضوعًا تامًّا لأوامر الدين وإلا وجب عزله.

المبدأ الرابع: العمل بأوامر الدين، وأن هذه الأوامر جزء لا يتجزأ من الإيمان، وكل مَن عصى الله يكون كافرًا، والذنوب جميعها كبائر.

المبدأ الخامس: وجوب الخروج على الإمام الجائر، ولا يقولون بالتقية كما تذهب إلى ذلك الشيعة.

شرْحُ أهم أصولهم البدعية:

الأصل الأول: زَعْمُهم أن الإيمان شيءٌ واحد لا يتركب ولا يتجزأ:

فالإيمان عندهم حقيقة واحدة لا تتبعض ولا تتجزأ؛ فمتى ذهب بعضه ذهب كله، فلم يبقَ منه شيء، وتفرَّع عن هذا الأصل البدعي بدع أخرى؛ قال ابن تيمية -رحمه الله-: وأصل نزاع هذه الفرق في الإيمان من الخوارج والمعتزلة والجهمية وغيرهم، أنهم جعلوا الإيمان شيئًا واحدًا، إذا زال بعضه زال جميعه؛ وإذا ثبت بعضه ثبت جميعه، والصواب: أن الإيمان له أصل وشُعب متعددة، تبدأ من الشهادتين، وتنتهي بإماطة الأذى عن الطريق، ومن هذه الشعب ما يزول الإيمان بزواله إجماعًا كقول القلب وهو الاعتقاد، وقول اللسان وهو الإقرار بالشهادتين لفظًا، ومنها ما لا يزول بزواله إجماعًا كترك رفع الأذى عن الطريق.

الأصل الثاني: تكفير صاحب الكبيرة، وتخليده في النار:

وهذا الأصل متفرع عن الأصل السابق؛ حيث قالت الخوارج: الطاعات كلها من الإيمان؛ فإذا ذهب بعضها ذهب بعض الإيمان، وبالتالي يذهب جميعه؛ لأنه شيء من الإيمان، ومن ثم حكموا بكفره وخلوده في النار.

الأصل الثالث: تكفيرهم لعثمان وعلي رضي الله عنهما:

إن من أشنع أصول الخوارج البدعية تكفيرهم لبعض الصحابة؛ حيث إنهم يكفرون عليًّا وعثمان، ويكفرون الحكمين، ويكفرون أصحاب الجمل، وكلَّ مَن رضي بتحكيم الحكمين، قال ابن تيمية - رحمه الله -: والخوارج والمعتزلة يقولون: إن صاحب الكبيرة يخلد في النار، ثم إنهم يتوهمون في بعض الأخيار أنهم من أهل

> إن بدعة الخوارج في الحقيقة تتعلق بالعقيدة؛ لأنهم يكفِّرون المسلمين بالذنوب ويخلدون العاصي في النار، ويخرجون المسلم بالمعصية من الإسلام.

الكبائر، كما تتوهم الخوارج في عثمان وعلي رضي الله عنهما وأتباعهما أنهم مخلدون في النار، ويبنون مذاهبهم على باطلَيْن:

أحدهما: أن فلانًا من أهل الكبائر.

الثاني: أن كل صاحب كبيرة يخلد في النار.

وصفوة القول في أصحاب نبينا عامة وفي العشرة المبشرين، والخلفاء الأربعة المهديين خاصة، هو ما قرره صاحب: (العقيدة الطحاوية) بقوله: «ونحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نفرِّط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض مَن يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دينٌ وإيمانٌ وإحسانٌ، وبغضهم كفرٌ ونفاقٌ وطغيانٌ».

الأصل الرابع: وجوب الخروج على الظَّلَمَة من الأئمة:

قالت الخوارج بوجوب الخروج على الأئمة الظلمة؛ بل قالوا بوجوب قتالهم، وكانوا هم أصحاب غارات وثورات، وتوسعوا في سفك دماء المسلمين وفرَّقوا كلمتهم، وشقُّوا عصا الطاعة بناءً على هذا المبدأ الفاسد، قال الأشعري عنهم: ولكنهم يرون إزالة أئمة الجور، ومَنْعهم من أن يكونوا أئمة بأي شيءٍ قدروا عليه بالسيف أو بغير السيف.

قال صاحب (الطحاوية) مبينًا عقيدة أهل السنة في ذلك:

«ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا، ولا ندعو عليهم ولا ننزع يدًا من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة، ما لم يأمر بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة، وفي الحديث: «مَن رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر؛ فإنه مَن فارق الجماعة شبرًا فمات، إلا مات ميتةً جاهليةً»، وفي الصحيحين: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية؛ فإن أمر بمعصية فلا سمعَ ولا طاعة».

الأصل الخامس: إنكارهم لحجية السنة:

لقد خالفت الخوارج ما عليه المسلمون من التمسك والاحتجاج التام بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ففي الوقت الذي أظهروا فيه التمسك الشديد بظاهر القرآن؛ أغفلوا التمسك بالحديث النبوي حتى المتواتر منه، وردوا ما خالف ظاهر القرآن عندهم.

قال ابن تيمية -رحمه الله-: الخوارج لا يتمسكون من السنة إلا بما فسر مجملها دون ما خالف ظاهر القرآن عندهم؛ فلا يرجمون الزاني ولا يرون للسرقة نصابًا. وقال أيضًا: وإذا عرف أصل البدع؛ فأصل قول الخوارج: أنه يكفرون بالذنب، ويعتقدون ذنبًا ما ليس بذنب، ويرون اتباع الكتاب دون السنة التي تخالف ظاهر القرآن وإن كانت متواترة، ويكفرون مَن خالفهم، ويستحلون منه - لارتداده عندهم - ما لا يستحلونه من الكافر الأصلي.

الأصل السادس: موقفهم من الصفات الإلهية:

يتفق موقف الخوارج في الصفات مع موقف المعتزلة إلى حدٍّ بعيد؛ فهم في الجملة من النفاة المعطلة، ينكرون رؤية الله تعالى في الآخرة، والقرآن لديهم مخلوق، يقول الأشعري - رحمه الله تعالى - عنهم: الخوارج يقولون جميعًا بخلق القرآن.

وللحديث بقية إن شاء الله عن بعض الفرق المبتدعة، ونسأل الله السلامة والعافية.

> قال الإمام الطحاوي: ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا، ولا ندعو عليهم ولا ننزع يدًا من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة، ما لم يأمر بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة.

قرائن اللغة والنقل والعقل على حمل صفات الله (الخبرية) و(الفعلية) على ظاهرها دون المجاز

علاقة صفات الله تعالى بذاته .. والرد على مُجْمَلات أهل الزيغ والضلال

الحلقة (١٣)

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.. وبعد:

إطلاق الذات في حق الله:

فبعد أن وقفنا على صحة إطلاق لفظة (الذات) في حقه تعالى، بمَا يَرُدُّ على منكريها أو الذاهبين إلى أنها مُوَلَّدة أو مقصورة على كونها مؤنثة (ذو)، يبقى السؤال: هل ذات الله مجردة عن الصفات؟ وما هي علاقة صفاته تعالى وأسماؤه بمسميات ذاته..

إعداد/ د. محمد عبد العليم الدسوقي

والجواب يكمن في:

أولاً: الإقرار باستحالة أن تكون هناك ذاتٌ مجردةٌ قائمةٌ بنفسها، منفَصلةٌ عن الصفات الزائدة عليها، ومعرفة أن غياب هذه البديهة كان منزلقاً خطيراً لدى فرق المعتزلة وأهل الكلام، زلت بسببه أقدامهم، وزاد من زللهم استخدامهم كلمتي: أنها (عينه) بحق صفة الوجود، وأنها (زائدة على الذات) بحق صفات المعاني والصفات المعنوية.. (*)

والحق أن الكلمتين ملبستين ومحدَثتين ومجمَلتين، لأنا إذا قلنا: (الصفاتَ عينُ الذات) كنا بذلك ألغينا الصفات بما فيها صفة الوجود، لاستلزام القول بأنها عينه ألا توجد صفات، وهذا تعطيل وتكذيب للنصوص المثبتة للصفات!، وإذا قلنا: إنها (زائدة على الذات)، فقد يُفهم أنها غيره، فيُصار إلى أن الصفات شيء والذات شيء آخر، وفي ذلك إيهامٌ بتعدد الأغيار أو الذوات أو الآلة أو القدماء، وهذا كفر.

لماذا يقول أهل العلم: صفات الله ليست هي ذاته ولا هي غيره؟

ومن هنا كان جواب أهل: أنه (لا يقال عن صفات الله إنها هي ذاته ولا هي غيره)، فكانوا لا يطلقون على صفات الله أنَّها غيره، ولا أنها عينه أو ليست غيره، ذلك أن لفظ (غَير) فيه إجمال، فلا يُطلق إلا مع البيان والتَّفصيل والتفسير.. لأنك إذا أطلقت مغايرة ذاته لصفاته، أو الإثبات بأنها غيره، أشعرتَ أنها مُباينةٌ له وأن ثمة ذاتاً مجردة قائمة بنفسها منفصلةَ عن الصفات الزائدة عليها، أو أنها شيء والذات شيء آخر، وهذا مُفضٍ إلى إيهام التبايُن وتعدد آلهةٍ ذوي صفات مختلفة.. وإذا أطلقت النفي بأنها ليستَ غيره ولا هي زائدة عن ذاته، كنت قد أشعرتَ أنها هي هو، وأن صفاته عينُ ذاته، وأن ليس لذاته صفات، وفي ذلك إنكارٌ لصفات الله بالكلية، وفي التعدّدية والإنكار كلامٌ كُفْرٌ ما أراده تعالى، لكون "الصفة - على حد قول شارح الطحاوية ص ٥٩ - ليست عين ذات الموصوف التي يفرضها الذهن مجردة، بل هي غيرها.. وليست غير الموصوف، بل الموصوف بصفاته شيء واحد غير متعدد"، فاسم الرب إذا أطلق يتناول الذات المقدسة بما تستحقه

من صفات الكمال، إذ يمتنع وجود ذات عريَّة عن الصفات.

هل أسماء الله تعالى ذاته أو غيره؟

ثانياً: أنه لا حجة لمن أنكر أو عطّل أسماءه تعالى بنفس الزعم، أو بزعم ألا تكون شريكة له في أوليته، أو بزعم تنزيهه تعالى عن التجسيم والتشبيه بادعاء أن الاشتراك في الاسم يوجب الاشتباه في معناه، ذلك أن ما قيل في صفاته يقال في أسمائه، إذ الاسم في الأصل: صفة قائمة بالمسمى، فلا يقال: (إن أسماءه تعالى عين ذاته) لئلا يفضي ذلك إلى إلغائها وإنكارها وتعطيلها، ولا يقال: (إنها غيره) لئلا يُتوهم من ذلك ما ذكرنا من الانفصال والمباينة، أو يوهم تعدد القدماء وعدم اتصاف ذاته تعالى بالوحدانية من كل وجه.. بل إنها - وبحسب الاستعمال - قد تطلق ويراد بآحادها أحيانا الدلالة على مسماها، وتطلق ويراد بها الدلالة على الاسم، فإذا قلت مثلاً: (يا الله) أو (سمع الله لمن حمده) أو نحو ذلك، بدا أنك تريد المسمَّى نفسه، خلافاً لما إذا عَرَّفتَ لفظَ الجلالة فقلت: (الله تعالى: اسمٌ عربي)، وكذا (الرحمن: من أسماء الله الحسنى) ونحو ذلك، كنت قد أردت الدلالة على الاسم، وهو هنا للمسمى ولا يقال: غيره، ونظير ذلك قولنا: (عامل) فإنها إذا أطلقت على إنسان يعمل بالفعل، كانت الكلمة المشتقة من العمل مغايرة لمسماه من حيث الاشتقاق، لكن في الاستعمال قد تلفظ كلمة (عامل) وأنت تعني مسماه..

وكذلك - ولله المثل الأعلى - لا يقال في أسمائه تعالى: (إنها غير المسمى) لما في ذلك أيضاً من إجمال، لأنه إن أريد بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى فحق، وأما إن أريد أن الله كان ولا اسم له حتى خلق لنفسه أسماء، أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم، أو أنه صار قادراً على الفعل والكلام، وأضحيا ممكنَين له تعالى بعد أن كانا ممتنعَين وأنهما انقلبا من الامتناع الذاتي إلى الإمكان الذاتي، فإن كل ذلك من أعظم الضلال والإلحاد في أسمائه عز وجل.

هل يلزم من تعدد الأسماء تعدد المسمى؟

ومن هنا ساغ لأهل أن يرُدوا كلام منكري أسمائه سبحانه، بأن: لازم كلامهم أن يكون الله - تعالى عن ذلك - ناقصاً في فترة، ثم حدثت له الصفات وكمُل بها، كما ردوه بأن "ليس بعد خلق الخلق استفاد سبحانه اسم الخالق، ولا بإحداث البرية استفاد اسم الباري، وكما أنه محييَ الموتى، بعدما أحيا استحق هذا الاسم قبل إحيائهم، كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم"، وبأن أسماءه تعالى كصفاته ليست شيئاً غير المسمى أو الموصوف بها في الخارج، وإنما هي معان قائمة به دالة على كماله، وأن الصواب فهمها والحرص على معرفة مدلولاتها، وأنه لا يلزم من تعدد الصفات أو الأسماء تعدد الموصوف أو المسمى.

دلالة الأسماء على الصفات:

بل إن دلالة أسمائه على ذاته وصفاته دلالة مطابقة وتضمن والتزام، فتدل بالمطابقة على الذات بالعَلَمية وعلى الصفة بالوصفية، لتَطابُق ألفاظها مع تمام معانيها، وتدل عليهما بالتضمن - وهي: دلالة اللفظ على جزء معناه الوضعي كدلالة لفظ (الدار) على السقف - وبالالتزام - وهي: دلالة اللفظ على معنى خارج عن المعنى الذي وضع له كدلالة (أسد) على الشجاعة - ذلك أنه ما من اسم من أسمائه تعالى إلا ويتضمن الصفة التي اشتُق منها، حتى اسم (الله) فإنه يتضمن صفةَ ومعنى الألوهية، لأنها إذا لم تتضمن معنى، صارت أسماء جامدة لا معنى لها، وإذا كانت كذلك لم تكن حسنى، أي: بالغةً في الحسن كماله، إذ من أين يأتيها الحسن ووصف الله لها بأنها كذلك، وهي جامدة وخالية من المعاني؟..

وقد يتضمن الاسم صفتين أو أكثر، لكن تضمنه الصفتين أو الأكثر يكون عن طريق دلالة الالتزام، كما في نحو اسم: (الخالق) فإنه يتضمن صفة الخلق، ويستلزم صفة العلم والقدرة، إذ لا خلق إلا بعلم وقدرة، وهكذا.. والقاعدة المُثلى في ذلك أن يقال: إن (أسماء الله أعلام باعتبار دلالتها على الذات، وأوصاف باعتبار دلالتها على المعاني، وهي مترادفة باعتبار الدلالة الأولى ومتباينة باعتبار الدلالة الثانية).

الفرق بين قولهم: صفات الله غير الله؛ وقولهم: الصفات غير الذات؟

ثالثاً: ضرورة التفرقة بين قول القائل: (صفات الله غير الله)، وقوله: (الصفات غير الذات)، فالأول باطل، لأن مسمى (الله) يَدْخلُ فيه صفاته تعالى، بخلاف مسمى (الذات) فإنه لا يدخل فيه الصفات،

لكن المراد: أن الصفات زائدة على ما أثبته المثبتون من الذات، والله هو الذات الموصوفة بصفاته اللازمة، ولهذا كانت عبارة (الصفات غير الذات) لها معنى صحيح، لأن الذهن قد يَفترض ذاتاً وصفة، كُلاً وحده، وقد يُسيغ القول بأن الصفات زائدة على الذات بمعنى أن ما يفهم من الصفة غير ما يفهم من الذات، لكن يُحيل ولا يتصور أن يكون في الخارج ذات مجردة أو منفكة عن الصفات، فالله تعالى له صفاتٌ زائدة عن ذاته من دون أن تكون الذات وصفاتها شيئَين، لأنه ليس في الخارج ذاتٌ مجردةٌ عن الصفات أو غير موصوفة، بل الذات الواحدة هي: الموصوفة بصفات الكمال الثابتة لها، والتي لا تنفصل عنها، ولهذا قال الإمام الطحاوي في مجمل اعتقاده: "لا زال بصفاته قديماً قبل خَلقه"، ولم يقل (لا زال وصفاته) لأن العطف يؤذن بالمغايرة، وكذلك قال الإمام أحمد في مناظرته الجهمية: لا نقول: (الله وعلمه، الله وقدرته، الله ونوره)، ولكن نقول: (الله بعلمه وبقدرته وبنوره هو إله واحد)، وتقول: (أعوذ بالله)، تريد: عُذتُ بالذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال المقدسة الثابتة التي لا تقبل الانفصال بوجه من الوجوه.

وفي حديث مسلم: (أعوذ بعزة الله وبقدرته من شر ما أجد وأحاذر)، وفيه: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق).. إلخ، تريد: بصفة من صفاته تعالى، وليس بغيره، وهذا المعنى يفهم من لفظ (الذات)، فإنها في أصل معناها لا تستعمل إلا مضافة، أي: ذات عزة، ذات قدرة، ذات علم.. إلخ، بمعنى صاحبة كذا.. فقط إنما يفرق بين صفات الذات وصفات الفعل بأن يقال: (إن صفات ذاته هي التي لم تزل ولا يزال موصوفاً بها، وإن صفات أفعاله هي التي سبقها، وكان تعالى موجوداً في الأزل قبلها) فهو سبحانه لم يزل ولا يزال فعّالاً لما يريد، حدث ما أردا منها أو لم يحدث بعد.. (كذا أفاده شارح الطحاوية ص٥٩: ٦١ والباقلاني في الإنصاف).

الإجمال في نفيهم حلول الحوادث به تعالى:

رابعاً: وعلى نحو ما كان الإجمال طريقاً للإلباس لدى طوائف الضلال فيما سبق، فقد كان كذلك في قولهم بـ (عدم حلول الحوادث به تعالى)، وهذه عبارة لم يَردْ نفيُها ولا إثباتها في كتاب ولا سنة، وفيها كذلك إجمال، فإن أريد: أنه سبحانه لا يحل بذاته المقدسة في شيء من مخلوقاته المحدثة، أو لا يَحدث له وصف متجدد لم يكن، فهذا نفي صحيح.

وأما إن أريد به نفي الصفات الاختيارية، يعني: على اعتبار أنه تعالى لا يفعل ما يريد، ولا يتكلم بما شاء إذا شاء، ولا أنه يستوي وينزل ويجيء ويغضب ويرضى لا كأحد من الورى، ولا يوصف بما وصف به نفسه مما ذكرنا وعلى النحو الذي يليق بجلاله، فهذا نفي باطل، رده أهل بقولهم: "لا زال بصفاته قديماً قبل خَلقه، لم يزدد بكونهم، شيئاً لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزلياً، كذلك لا يزال عليها أبدياً"، ذلك أن فعلَه تعالى لما يريد دلالةٌ على طلاقة قدرته، كما أن جميع صفاته صفات كمال وفقدها صفة نقص، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفاً بضده.

سبب زللهم في باب الأسماء والصفات:

ويُعلم مما سبق أن اللغط في (علاقة صفات الله تعالى بذاته) إنما أتى من قِبل من أحدث الألفاظ والعبارات الملبسة، وأجملها ولم يفصّلها على النحو السالف الذكر، وهم المعتزلة والجهمية ومن وافقهم من الشيعة، فأسفر ذلك عن قولهم: (إنه تعالى صار قادراً على الفعل والكلام، بعد أن لم يكن قادراً)، أو (لم تكن له صفات في الأزل ثم كانت)، وكانت حجتهم فيما جنحوا إليه: أن في إثبات الصفات له سبحانه إبطالاً للتوحيد، لما أنها موجودات قديمة مغايرة لذاته، فيلزم قِدَم غير الله وتعدد القدماء أو الواجب لذاته، وبأن النصارى ما كفرت إلا بإثبات ثلاثة من القدماء، فما بال إثبات السبعة أو أكثر؟، وأن الواجب تنزيهه تعالى عن التعدد وألا تكون الأسماء والصفات شريكة لله في أوليته، وقد عرفنا كيف كانت حججهم داحضة وكيف كان تنزيههم اتهاماً لله بالنقص، لكون ما وصف به تعالى نفسه إما أن يكون صفة كمال فعدمها في الحال نقصان، وإما أن يكون صفة نقصان وثبوتها له ممتنع، فذلك باطل لكونه تعالى قد أثبتها لنفسه، كما أن النصارى وإن لم يصرحوا بتعدد وتغاير القدماء، إلا أن ذلك يلزمهم، لأنهم أثبتوا الأقانيم الثلاثة التي هي (الوجود والعلم والحياة)، وسموها (الأب والابن وروح القدس)، وزعموا أن أقنوم العلم قد انتقل إلى بدن عيسى عليه السلام، فجوزوا

انفكاك الصفة عن الذات وانتقالها، فكانت الأقانيم ذواتاً متغايرة، وتعدّدُ ذوات قديمة وتغايرُها هو المستحيل، أما تعدد الصفات لموصوف واحد فهذا لا يضر بالتوحيد، لكونها صفات وأسماءَ ذاتَ معانٍ دالة على الكمال، ونفيُها أو أيٍّ منها؛ نفي لما تدل عليه هذه المعاني.

ولقد كان نهج الصحابة الأجلاء وهم عرب خُلَّص، بمنأى عن هذه السفسطات التي طغى عليها الجانب الفلسفي والإجمالي وذهبت برونق وطلاوة النصوص، ولم يَرد في دواوين الحديث وآثار السلف أن صحابياً سأل النبي عن صفات الله أو اعتبرها صفة ذات أو صفة فعل، وإنما اتفقت كلمة الجميع على إثبات صفات أزلية لله تعالى، مغلِّبين - في سلاسة ويسر - أدلة التنزيه في الإثبات لكثرتها ووضوح دلالتها، عالمين باستحالة تشبيه صفات الخالق بصفات مخلوقاته، لكونها من جنس مباينة ذاته لذواتها، فوقفوا على معانيها ولم يتعرضوا لكيفية هذه المعاني ببحث ولا تأويل، وكان هذا معنى قول الكثير منهم: (قراءتها: تفسيرها) و(أمرُّوها كما جاءت).

أثر الابتعاد عن طريق السلف:

والحق فيما اعتقدوه، فإنه وبسبب ترك طريقة السلف هذه، طفق المتكلفون لأمور الاعتقاد يعدّون ظواهر النصوص في الصفات، من المتشابه، وراحوا يُعملون العقول في تأويلها بعد أن توغّلوا في التشبيه وعللوا له بطرق واهية.. ففريق - وهم المجسمة تبعاً لليهود والشيعة والخوارج - جنح إلى التشبيه في (الذات) باعتقاد تشبيه (اليد) و(العين) و(الوجه) إلى غير ذلك من الظواهر، بما للإنسان، فوقعوا في التجسيم الصريح، مع أن معقولية الجسم تقتضي النقص والافتقار، ومع أن الأَوْلى والأصل؛ وصف المعبود بالتنزيه المطلق الظاهر الدلالة من غير تأويل..

وفريق - وهم المشبِّهة والحشوية - ذهب إلى التشبيه في (الصفات)، كإثبات الجهة والاستواء والنزول والصوت والحرف وأمثال ذلك، وآل قولهم إلى التجسيم، واندفع قولهم بما اندفع به الأول.. ثم لما ألف المتكلمون في التنزيه الذي أوّلوا من خلاله الصفات الخبرية والفعلية لكونها بزعمهم موهمة ومشابهة للحوادث ولم تثبت بالعقل، حدثت بدعة المعتزلة تبعاً للفلاسفة في تعميم هذا التنزيه المغلوط، فقضوا بنفي صفات المعاني من (القدرة والإرادة والعلم والحياة) على اعتبار أنها زائدة على أحكامها، ولما يلزم من إثباتها - بزعمهم - تعدد القديم، وقضوا بنفي (السمع والبصر) بدعوى أنهما من عوارض الأجسام.

وقد أدى ما أثاره كل أولئك إلى انتهاض أهل على هذه العقائد بالأدلة العقلية، وخلصوا إلى أن ما نفاه النفاة بدعوى أنه من عوارض الأجسام، يلزمهم فيه ما أثبتوه من صفات لكون القول في بعض الصفات كالقول في البعض، والقول فيها كالقول في الذات، فكما أن ذاته لا تُماثل ذوات المخلوقات فكذا صفاته، وخلصوا كذلك إلى أن الممتنع تعدد الذوات المستقلة المتغايرة لا تعدد صفات لذات واحدة، وإلى أن الصفات ليست عين الذات ولا غيرها، فانتفى بذلك التعطيل والتعديد.. وكان من كلام ابن تيمية بـ (لوامع الأنوار الإلهية) ١/ ٢١٩، في الرد عليهم ما نصه: "الذي عليه سلف الأمة وأئمتها، أنه إذا قيل لهم: (علم الله وكلام الله، هل هو غير الله أم لا؟)، لم يطلقوا النفي ولا الإثبات، فإنه إذا قيل لهم: (هو غيره)، أوهم أنه مباين له، وإذا قيل: (ليس غيره)، أوهم أنه هو"، ثم طفق - رحمه الله - يفصل القول في ذلك.

إثبات نسبة الذات لله تعالى وعلاقتها بصفاته، في كلام إمام المذهب (أبي الحسن الأشعري):

ومن قبل شيخ الإسلام ابن تيمية ت ٧٢٨، هبَّ إمام المتكلمين - الشيخ أبو الحسن الأشعري ت ٣٢٤- فتوسط بين الطرق السالفة الذكر، ونفى التشبيه، وأثبت صفات المعاني، وقصر التنزيه على ما قصره عليه السلف وما شهدت له الأدلة المخصِّصة لعمومه، لإثبات الصفات الأربع المعنوية، ولإثبات السمع والبصر والكلام القائم بالنفس وسائر ما أثبته تعالى لنفسه، بطريق النقل والعقل، ورد على المبتدعة في ذلك كله.. ومن كلامه في الإبانة ص ٩٨ وهو يستعرض الصفات بأدلتها المستفيضة صفة صفة: "ويقال لهم: (قد علَّم الله نبيه صلى الله عليه وسلم الشرائع والأحكام، والحلال والحرام، ولا يجوز أن يعلم تعالى نبيه ما لا علم لله به)"، وقوله ص ٩٦: "قال رئيس من رؤسائهم: (إن علم الله هو الله)، فجعل الله تعالى علماً، وألزم فقيل له: (إذا

قلت إن علم الله هو الله، فقل: يا علم الله اغفر لي وارحمني)، فأبى ذلك فلزمه المناقضة، واعلموا أن من قال: (عالم ولا علم)، كان مناقضاً.. وكذلك القول في القادر والقدرة، والحياة والحي، والسمع والبصر والسميع والبصير"، وفيه إثبات صفة العلم بما يَردُّ على المعتزلة ادعاءاتهم أن الصفات عين الذات، وإحالة أن يكون للمخلوق علماً دون أو فوق مرتبة الخالق، كما فيه الرد على الآمدي في دعواه بأن الأشعري لم يسلك في إثبات الصفات طريق الكمال.

علاقة صفات الله تعالى بذاته:

وفي تفصيل منهج الأشعري يقول د. راجح الكردي في كتابه (علاقة صفات الله تعالى بذاته) ص ٨٢: "يرى أبو الحسن الأشعري - وقد عرف مذهب المعتزلة والمتكلمة وعاناهما - أن مقالة المعتزلة في نفي الصفات ورثوها من الجهمية، وأن الجهمية أخذت الفكرة من الزنادقة وحمَلة الديانات الشرقية، وهو بهذا يشير إلى: تأثر المعتزلة بالجهمية في أخذ المشكلة عنهم، وإلى مصدر المشكلة وأنها من الديانات الشرقية أي الهندية.

وجعل د. الكردي (ص ١٣٦وما بعدها من نفس المصدر) يوضح أن قيمة الأشعري في قضية الصفات، تَظهر كجزء من قيمة مذهبه الكلامي في محاولة دعم عقيدة السلف الصافية بالمنهج العقلي، فهو قد ارتد من الشطط العقلي الاعتزالي، ومثّل منهجُه الجديد محاولةً جريئة ومخلصة في إيجاد أرض مشتركة بين أصحاب الاتجاهين: النصي والعقلي بحيث يمتزجان في منهج واحد، قوامه: استخدام العقل في الدفاع عن النص، ورد المعتدين على قداسة النص الديني بالتأويل وتحكيم المنهج الفلسفي في مدلولاته، على وجه يدفع الخصم ويدحض حجته.. أما أن صفات المعاني عين الذات أو ليست عينها، فالأشعري يوضح متبعاً لبعض أصحاب ابن كُلاب: بأنه (لا يقال: هي هو، ولا يقال: هي غيره).

وهذا منهج دقيق وأدب في التعامل مع الله، من رجل انتهج المنهج العقلي المستوحَى من روح الشرع، إذ يؤكد عدم الجدوى من الحكم على هذه القضية، وأنه لا يصح أن يُحكم فيها، لأن ذات الله فوق أن تحيط بكنهها العقول حتى تتمكن من عقد صلة بينها وبين الصفات على هذا الوضع.

وقد قرر مذهبَ الأشعري هذا، أصحابُه من بعده كالباقلاني (ت ٤٠٣) وأبي المعالي الجويني (ت ٤٧٨)، والآمدي (ت ٦٣١)، فمثلاً أثبت الباقلاني الصفات وقال: "هي معاني قائمة بالذات"، وقال الآمدي في غاية المرام ص ٣٨: "ذهب أهل الحق أن الواجب بذاته: مريدٌ بإرادة، عالمٌ بعلم، قادرٌ بقدرة، حيٌّ بحياة، سميعٌ بسمع، بصيرٌ ببصر، متكلمٌ بكلام".. كما نجد البيهقي ت ٤٥٨ من الأشاعرة يوافق أبا الحسن الأشعري في تقسيمه للصفات إلى صفات ذات يمتنع مفارقتها للموصوف بوجه ما، وصفات أفعال يمكن مفارقتها، كما يوافقه في إثباتها والاستدلال عليها بما في ذلك الصفات الخبرية..

وقد تقرر بهذا أن الأشعري يمثل - في آخر مراحله - المذهب الوسطي الذي يجمع بين أدلة العقل ونصوص النقل، وحُق له أن تُدرَّس كتبه من نحو (الإبانة) و(مقالات الإسلاميين)، و(رسالة أهل الثغر) في معاهد العلم المختلفة وعلى رأسها وفي مقدمتها مؤسسة الأزهر، كونها مقصد طلاب العلم في أرجاء المعمورة والمعوَّل عليها كثيراً في تصحيح عقيدة الأمة..

وإلى لقاء آخر نستكمل الحديث، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(•) الصفات المعنوية عندهم هي صفات زائدة على المعاني التي أوجبتها. وصفات المعاني ما دل على وجودي قائم بالذات، وهي سبع صفات: الحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام. والصفات المعنوية: هي أحكام لصفات المعاني ككونه حيًا، عليمًا ومريدًا... إلخ.

والفرق بين الصفات المعنوية والمعاني عندهم:

أ- صفات المعاني وجودية تُعقل ذهنًا وخارجًا.

ب- أن الصفات المعنوية ثبوتية تعقل ذهنًا فقط. (وانظر: شرح السنوسية ص٤٣).

فلذات الأكباد

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

أما بعد:

فإن نعم الله عز وجل لا تحصى، وعطاياه لا تُعد، ومن تلك النعم العظيمة وأجلها نعمة الأبناء، فلذات الأكباد.

قال الله تعالى: « وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ » (النحل:٧٢)، ولا يعرف عظم هذه النعمة إلا من حُرم منها.

وهم زينة، قال الله تعالى: «الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » (الكهف:٤٦)، وزينة الذرية لا يكتمل بهاؤها وجمالها إلا بصلاحها.

وهذا النعمة العظيمة هي أمانة ومسئولية، يسأل عنها الوالدان يوم القيامة، أحفظا أم ضيعا؟

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِه وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِه وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه "، قَالَ: وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيه وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه». (متفق عليه).

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ

غَاشٌ لِرَعِيَّتِهِ إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ». (متفق عليه).

ولقد استهان كثيرٌ من الآباء بهذا الحق فأضاعوا أولادهم ونسوهم كأن لا مسئولية لهم عليهم، لا يسألون أين ذهبوا ولا متى جاءوا، ولا من أصدقاؤهم وأصحابهم، ولا يوجهونهم إلى خير ولا ينهونهم عن شر.

يقول ابن القيم رحمه الله: «فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه، وتركه سدًى، فقد أساء غاية الإساءة، وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قبل الآباء وإهمالهم لهم، وترك تعليمهم فرائض الدين وسننه، فأضاعوهم صغارًا، فلم ينتفعوا بأنفسهم، ولم ينفعوا آباءهم كبارًا». اهـ.

فعلى الآباء أن يقوموا بتربية أولادهم وتوجيههم وإرشادهم ومراقبتهم مراقبة تامة، لا سيما في الوقت الذي تكثر فيه الفتن وتشتد فيه المنكرات، فإن الأمانة تحتم عليهم الرقابة أكثر مما إذا خفت الفتن وقلت المنكرات.

ألسنا في أموالنا إذا كثرت السرقة وكثرت الخيانة نتحفظ فيها أكثر ونطلب لها المكان الأحرز؟ فكذلك يجب علينا في أولادنا، بل ملاحظة أولادنا أوجب علينا من ملاحظة المال، لما في إهمالهم من الخطر علينا وعلى أنفسهم وعلى الأجيال المقبلة كلها.

إن أولادنا- وليس أموالنا- هم الذين يصحبوننا في الجنة- إن شاء الله- إذا اتبعونا في الإيمان، قال الله تعالى: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ» (الطور:٢١).

إن كل واحد من الناس لا يرضى أن يكون منعمًا في الجنة وأولاده معذبين في النار، إننا نجزم أن الشخص لو رأى النار في الدنيا تأكل أولاده أو أقربائه لسعى بكل جهده في دفعها عنهم، أفلا يعقل ويقيس كيف يرى ولده يسعى في المعاصي التي هي أسباب دخول النار ثم لا يبالي بذلك مع أن إهماله يوجب أن يعذب عليه، لأنه عاص لله حيث قال الله سبحانه وتعالى: «يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوٓا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ» (التحريم:٦).

وقفات سريعة إلى كل أب وأم لعل الله أن ينفع بها الدعاء للأبناء بالهداية والصلاح:

قال الله تعالى: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ» (البقرة:١٨٦)، وقال الله تعالى: «وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ» (غافر:٦٠)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدعاء هو العبادة». (صحيح الجامع: ٣٤٠٧).

وقال صلى الله عليه وسلم: «الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم عباد الله بالدعاء». (صحيح الجامع: ٣٤٠٩).

وقد دعا الأنبياء والمرسلون لأبنائهم، فهذا خليل الرحمن إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، قال الله تعالى: «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» (البقرة:١٢٨).

ويقول الخليل عليه السلام: «رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ» (إبراهيم:٣٥).

ويقول عليه السلام: «رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ» (إبراهيم:٤٠).

ويقول أيضًا عليه السلام: «رَبِّ هَبْ لِي مِنَ

﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (الصافات:١٠٠).

وهذا نبي الله زكريا عليه السلام يقول: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ (آل عمران:٣٨).

وقال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ (مريم: ١-٦).

وهذه الولاية، ولاية الدين، وميراث النبوة والعلم والعمل، أي: عبدًا صالحًا ترضاه، وتحببه إلى عبادك، وهذا أفضل ما يكون من الأولاد.

وعباد الرحمن يقولون: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان:٧٤).

والذي بلغ أشده وبلغ أربعين سنة يقول: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ (النمل:١٩).

فعليك أيها الوالد بالتأسي بالأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين بالدعاء لأولادك بالهداية والصلاح، فكم من دعوة اهتدى بسببها ضال، وكم من دعوة اختصرت مسافات التربية.

وعليك تحرِّي أوقات الإجابة ، قال صلى الله عليه وسلم: «الدعاء بين الأذان والإقامة مستجاب فادعوا». (مسند أبي يعلى وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٣٤٠٥).

وقال صلى الله عليه وسلم: «الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة». (سنن الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٣٤٠٨).

ويوم الجمعة: قال صلى الله عليه وسلم: «فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي، يسأل الله تعالى شيئًا إلا أعطاه إياه». (متفق عليه).

وقال صلى الله عليه وسلم: «يوم الجمعة اثنتا عشرة ساعة لا يوجد فيها عبد مسلم يسأل الله شيئًا، إلا أتاه إياه فالتمسوها آخر ساعة بعد العصر». (سنن أبي داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٨١٩٠).

وفي السجود: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ». (مسلم: ١٠١٥).

وحتى تكون مستجاب الدعوة طيب أيها الأب مطعمك ومشربك وملبسك، حتى ترفع يديك بالدعاء إلى الله بأيد طاهرة ونفس زكية.

صلاح الوالدين ينفع الأبناء بإذن الله:

ولصلاح الوالدين عظيم الأثر في صلاح الأبناء، قد يحفظ الله العبد بصلاحه بعد موته في ذريته، كما حدث مع موسى والخضر عليهما السلام حين مر على أهل قرية فطلبا من أهلها الطعام، فأبوا أن يُضيفوهما، فوجدا فيه هذه القرية جدارًا مائلاً يريد أن يسقط فأقامه الخضر.

وأما الجدار فقد علمت من الله أن تحته كنزًا ليتيمين صغيرين، تحدَّرا من رجلٍ صالح كريم، فأردت أن أحمي هذا الجدار، حتى يشتد أزرهما، ويقوي على الحياة أمرهما، فيستخرجا كنزهما مالاً حلالاً طيبًا لهما، وما فعلت هذا بعلمي ولا برأيي، ولكنه وحي من الله.

قال الله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۝٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ (الكهف:٧٨).

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي

﴿ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ (الكهف:٨٢).

فانظر أيها الوالد كيف حفظ الله سبحانه وتعالى أموال الأيتام بصلاح الآباء؟

قال سعيد بن المسيب لابنه: لأزيدن في صلاتي من أجلك رجاء أن أحفظ فيك، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ (الكهف:٨٢).

وقال عمر بن عبد العزيز: ما من مؤمن يموت إلا حفظه الله في عقبه وعقب عقبه.

وقال ابن المنكدر: إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولده ولده والدويرات التي حوله، فما يزالون في حفظ من الله وستر.

فالولد الصالح ينتفع بصلاح أبويه في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (الطور:٢١).

فهؤلاء المذكورون يلحقهم الله بمنازل آبائهم في الجنة، وإن لم يبلغوها جزاءً لآبائهم، وزيادة في ثوابهم، ومع ذلك، لا ينقص الله الآباء من أعمالهم شيئًا.

ولما كان ربما توهم متوهم أن أهل النار كذلك يلحق الله بهم ذريتهم، أخبر أنه ليس حكم الدارين حكمًا واحدًا، فإن النار دار العدل، ومن عدله تعالى ألا يعذب أحدًا إلا بذنب، ولهذا قال: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (الطور:٢١) أي: مرتهن بعمله، فلا تزر وازرة وزر أخرى، ولا يحمل على أحد ذنب أحد، وهذا اعتراض، من فوائد إزالة هذا الوهم المذكور. (تفسير السعدي ١٩١/٧).

العناية بالنشء مسلك الأخيار:

إن العناية بالنشء مسلكُ الأخيار، وطريق الأبرار، ولا تفسدُ الأمة وتهلك في الهالكين إلا حين تفسد أجيالها، ولا ينالُ الأعداء من أمة إلا إذا نالوا من شبابها وصغارها.

وفي كتاب الله تعالى إخبارٌ عن أنبياء الله تعالى، يقول الله عز وجل عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة:١٣٠-١٣٣).

ويقول: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ (مريم:٥٥).

وهذا نبي الله يعقوب عليه السلام في اللحظات الأخيرة من حياته يريد أن يطمئن على عقيدة بنيه من بعده، يقول الله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة:١٣٣).

ولهذا نجد لقمان الحكيم يوصي ابنه وصيةً تكون سببًا لسعادة الدارين سجلها لنا ربنا سبحانه وتعالى لتكون عبرة وعظة: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق:٣٧).

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ

﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ (لقمان:١٣-١٩).

ما أحوجنا معشر الآباء إلى هذه الموعظة، نتدبرها ونعمل بها في أنفسنا، ثم نعظ بها أبناءنا.

العقيدة هي أهم ما نربي عليه أولادنا:

ولقد رسم النبي صلى الله عليه وسلم فيما رسم منهجًا واضحًا في وصايا وجَّهها لشباب الأمة وأبناء الأمة المحمدية، ممثلة في ابن عمِّه الغلام عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حيث قال: «يَا غُلَامُ إنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظْ اللهَ يَحْفَظْكَ احْفَظْ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ». (سنن الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٧٩٥٧).

فالأصل في تربية النشء إقامة عبودية الله تعالى في قلوبهم، وغرسها في نفوسهم وتعاهدها.

إن أول لبنة في بناء الشباب لبنة العقيدة، ورسوخ الإيمان، وصدق التعلق بالله وحده والاعتماد عليه.

إن أولها حفظ الله بحفظ حقوقه وحدوده، ومن ثم الاستعانة به وحده في الأمور كلها، والتوكل عليه، واليقين الجازم بأن بيده سبحانه الضر والنفع.

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى ابنه عبد الله: أما بعد؛ فإنه من اتقى الله وقاه، ومن توكل عليه كفاه، ومن شكر له زاده، ومن أقرضه جزاه، فاجعل التقوى عماد قلبك، وجلاء بصرك، فإنه لا عمل لمن لا نية له، ولا أجر لمن لا خشية له، ولا جديد لمن لا خلق له.

فاجتهد أيها الوالد في تربية أولادك، واعلم أنك لن تنتفع بعد مماتك إلا بمن صلح منهم.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ». (مسلم: ١٦٣١).

وقال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ» (صحيح سنن ابن ماجة: ٢٤٢).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ عَبْدٍ يُؤْمِنُ ثُمَّ يُسَدِّدُ إِلَّا سُلِكَ بِهِ فِي الْجَنَّةِ وَأَرْجُو أَلَّا يَدْخُلُوهَا حَتَّى تَبَوَّءُوا أَنْتُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ذَرَارِيكُمْ مَسَاكِنَ فِي الْجَنَّةِ وَلَقَدْ وَعَدَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ». (صحيح الجامع: ٧٠٦٢).

والحمد لله رب العالمين



حادثة الإفك

الحلقة الثانية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعدُ:

فقد انتهينا في الحلقة الماضية عند عودة جيش النبي صلى الله عليه وسلم من غزوة بني المصطلق، وتخلف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بسبب بحثها عن عقدها الذي فقدته، فلم ترجع إلا والجيش قد سبقها، فرآها صفوان بن المعطل رضي الله عنه؛ وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد جعله في مؤخرة الجيش ليتابع أي شيء نسيه الجنود أو سقط منهم ولم يعلموه.

إعداد/ جمال عبد الرحمن

فلما رآها ذلك الصحابي الجليل أناخ بعيره وأركبها وانطلق يسحب بعيره ويسير بها خلف الجيش حتى بلغوا المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

قالت عائشة رضي الله عنها: «فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الجَيْشَ مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ وَهُمْ نُزُولٌ، قَالَتْ: فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَ الإِفْكِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقَدِمْنَا المَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الإِفْكِ، لاَ أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لاَ أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي، إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَيُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تِيكُمْ»، ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَذَلِكَ يَرِيبُنِي وَلاَ أَشْعُرُ بِالشَّرِّ.

حَتَّى خَرَجْتُ حِينَ نَقَهْتُ، فَخَرَجْتُ مَعَ أُمِّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المَنَاصِعِ، وَكَانَ مُتَبَرَّزَنَا، وَكُنَّا لاَ نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، قَالَتْ: وَأَمْرُنَا أَمْرُ العَرَبِ الأُوَلِ فِي البَرِّيَّةِ قِبَلَ الغَائِطِ، وَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا، قَالَتْ: فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ، وَهِيَ ابْنَةُ أَبِي رُهْمِ بْنِ المُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَأُمُّهَا بِنْتُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ، خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ بْنِ عَبَّادِ بْنِ المُطَّلِبِ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي حِينَ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ، فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟ فَقَالَتْ: أَيْ هَنْتَاهْ وَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟ قَالَتْ: وَقُلْتُ: مَا قَالَ؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ، قَالَتْ: فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي». (صحيح البخاري ٥/ ١١٧).

قولها: «فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الجَيْشَ مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ وَهُمْ نُزُولٌ، قَالَتْ: فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَ الإِفْكِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ». قال النووي رحمه الله: (نَزَلُوا مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ) أي نَازِلِين فِي وَقْتِ الوَغْرَةِ وَهِيَ شِدَّةُ الحَرِّ، وَنَحْرُ الظَّهِيرَةِ هو وَقْتُ القَائِلَةِ وَشِدَّةُ الحَرِّ قالت: وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ (أي معظمه)، تعني أن الذي كان له القسط الأكبر في اتهام أم المؤمنين بالفاحشة هو عبد الله بن أبي بن سلول». (شرح النووي على مسلم ١٧/ ١٠٥).

قولها رضي الله عنها: فقدمت المدينة فاشتكيت بها شهرًا (أي مرضتُ مدة شهر)، والناس يُفيضون، من الإفاضة وهي التكثير والتوسعة،

يُقَال: أَفَاضَ الْقَوْم فِي الْحَدِيث إذا انْدَفَعُوا فيه يَخُوضُونَ، وَهُوَ من قَوْلِه تعالى: «لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ».(النُّور:١٤). فخاض الناس في شأنها وتوسعوا. تقول: ويريبني في وَجَعي (أي ويشككني) أَنّي لا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللّه صلى الله عليه وسلم اللُّطْفَ (وهو البر والرفق) الَّذي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي (أمرض)، إنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللّه صلى الله عليه وسلم فَيُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تِيكُمْ»، تيكم: إشارة إلى المؤنث، مثل: ذاكم مع المذكر. ثُمَّ يَنْصَرِفُ النبي صلى الله عليه وسلم، فَذَلِكَ يَرِيبُنِي وَلاَ أَشْعُرُ بِالشَّرِّ (تعني: لا تشعر بشيء تستنكره).

تقول: حَتَّى خَرَجْتُ حِينَ نَقَهْتُ، أي شُفيتُ، وَالنَّاقَهُ في دور النقاهة: هُوَ الَّذي برئ من المرض، ولا يزال قريبَ عهد به لم يتراجع إليه كمال صحته، قالت: فَخَرَجْتُ مَعَ أُمِّ مِسْطَحٍ (قريبة لها) قِبَلَ المَنَاصِعِ (مكان قضاء الحاجة)، وَكَانَ مُتَبَرَّزَنَا. وَكُنَّا لا نَخْرُجُ إلا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ،(وذلك بسبب النظام في الأكل فلا يحتاج الإنسان لقضاء حاجته إلا من الليل إلى الليل، لكن مع الإسراف واللملمة؛ في الأكل والرمرمة، وكثرة الشبع المؤلمة، فتصير البطن شروعاء، ومكمن الداء، وصُحبة مع الخلاء). فكانت النساء تخرج إلى المتبرز في الليل كما قالت:» وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا». (والكنيف هو السَّاتر، وَسُمي به موضع الغائط لأنهم يستترون به).

قالت: (وأمرنا أمر العَرَبِ الأول)، يَعْني في التبرز خارج البيوت. وكانوا يتأذون من قرب الكنيف من البيت، وهذا يدل علي نظافة العرب والمسلمين قديمًا. فيا ليت المعاصرين الذين يدَّعون الحضارة يفهمون ذلك فلا يلقون بأكوام القمامة العفنة والمنتنة، ومخلفات الطعام في الطرقات وحول مساكنهم. ولذلك كان من أعجب الشهادات التي قيلت في حق الصحابة في هذا الشأن قول المستشرق الفرنسي هنري سيروي:» إن محمدًا (صلى الله عليه وسلم) لم يغرس في نفوس الأعراب مبدأ التوحيد فقط؛ بل غرس فيهم أيضًا المدنية والأدب». (في كتابه: فلسفة الفكر الإسلامي ص٨).

قَالَتْ: » فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ، وَهِيَ ابْنَةُ أَبِي رُهْمِ بْنِ المُطَّلِبِ، وَأُمُّهَا خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي حِينَ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا». أي من قضاء الحاجة.وَفِيهِ أَنَّ الْمَرْأَة إذا خَرَجَتْ لِحَاجَة تَسْتَصْحِبُ مَنْ يُؤْنِسُهَا أَوْ يَخْدمُهَا مِمَّنْ يُؤْمَنُ عَلَيْهَا.

وهذا من التعبيرات المهذبة اللطيفة عند الحديث عن مثل هذه الأحوال، وهو دليل على أدب الصحابة الجم وخلقهم النبيل، ومستواهم العالي الرفيع في سمو النفس ورقي الأخلاق، هؤلاء هم الصحابة الذين يتطاول عليهم جرذان هذا الزمان.

قالت عائشة:» فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي حِينَ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا». وَكَانَت أم مسطح من أشد النَّاس على ابْنهَا مسطح، قَالَ الْوَاقِدِيّ: شهد مسطح مَعَ عَلِيّ، رضي الله عنه، صفين وَمَات في سنة سبع وَثَلَاثِينَ عَن ستّ وَخمسين سنة. ومسطح، اسم عود من أعواد الخباء (الخيمة)، وأثاثة، مؤنث الأثاث: وهو المال عمومًا سواء من الإبل وَالْغنم وَالْعَبِيد وَالْمَتَاع الخ.قالت:» فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا (وهو كساء من الصوف تأتزر به المرأة على نصف جسدها الأسفل) فَقَالَتْ (لما انزلقت): تَعِسَ مِسْطَحٌ، (أي انكب على وجهه)، فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟ وَفِي ذَلِك دفاع الْمُسلم عَن الْمُسلم خُصُوصًا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْفَضْلِ وَرَدْع مَنْ يُؤْذِيهِمْ وَلَوْ كَانَ مِنْهُمْ بِسَبِيلٍ (وهذا من تغيير المنكر وعدم السكوت على من يسب أحدا ولو كان السابُّ الأم أو الأب، وهو نوع من الدفاع عن أعراض المسلمين). فَقَالَتْ أم مسطح: يا هَنْتَاهْ (وَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟ وَفِيه فَضِيلَة قَوِيَّة لأم مسطح لأنها لم تُحَابِ وَلَدهَا في وُقُوعه في حَقّ عَائِشَة بَلْ تَعَمَّدَتْ سَبَّهُ عَلَى ذَلِكَ.

قالت عائشة: قلت لأمه: مَا قَالَ؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي. (فَقَالَتْ: يَا هنتاه) وَمَعْنَاهَا: يَا هَذِه، وَقيل: يَا امْرَأَة، وَقيل: يَا بَلْهَاء (أي يا غافلة)، كَأَنَّهَا نَسَبَتْهَا إِلَى قِلَّة الْمعرفَة

بمكائد الناس وشرورهم.

قلت: وهذا دائما شأن عفيفات النساء المؤمنات الغافلات التي تقر في بيتها، ليست خراجة ولاجة، ولا تكثر من مخالطة هذه وتلك من النساء فتتعلم الأساليب والألاعيب.

قالت عائشة رضي الله عنها: فلمَّا رَجعْتُ إلَى بَيْتِي (أي من قضاء الحاجة) دَخل عليّ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم فسلَّم، ثُمَّ قال: «كيْفَ تيكُم» أي كيف حالكم، فقلتُ له: أتـأْذَنُ لي أنْ آتي أبـويّ؟ (يظهر من استئذانها أنَّ الزَّوْجَة لا تذهب إلى بَيْت أبَويها إلاّ بإذْن زوجها، مهما كان حجم المشكلة، بخلاف خروجها لقضاء حاجة الإنْسَان فلا تحتاجُ فيه إلى إذنه، كما وقع في هذا الحَديث). فليتعلم المسلمون هذه الأحكام التي بسبب جهلها أو العناد فيها، خُرِبت بيوت وطُلقت نساء، وقُطعت أرحام وشُرِّد الأبناء.

قالتْ: وأُريدُ أنْ أسْتَيْقِنَ الخَبَرَ منْ قبلهما.(وفيه استشارةُ المَرْءِ أهْل بطانته ممَّنْ يَلوذُ به بقرابة وغيْرها، وتخْصيصُ منْ جَرِبتْ صحَّةُ رأيه منْهُمْ بذلك ولو كان غيْره أقْـرب). (فتح الباري لابن حجر ٨/ ٤٨٠).

قالتْ: فأذن لي رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم، فقُلْتُ لأُمي: يا أُمَّتاه، ماذا يَتحدثُ النَّاسُ؟ قالتْ: يا بُنيَّةُ، هَوِّني عليْك، فوالله لقلَّما كانت امْرأةٌ قطُّ وضيئةٌ عنْد رجُلٍ يُحبُّهَا، لَهَا ضَرائرُ، إلاَّ كثرْنَ عليْها.(فعائشة قالت: ذهبْتُ إلى بيت أبي لأتعرف من أبوي على حقيقة ما دار حولي من حديث الإفك « فقلت لأمي: ما يتحدث الناس به؟ فقالت: يا بنية هوني على نفسك الشأن « أي فأرادت أمها « أم رُومان « تسليتها والتخفيف عنها، فقالت لها: لا تهتمي بالإشاعة كل هذا الاهتمام، ولا تحزني كل هذا الحـزن، وخففي عن نفسك من همومها وأحزانها، فلست أوّل امـرأة حسناء قيل عنها ما قيل، بل قلما كانت امـرأة جميلة محبوبة عند زوجها لها ضرائر يغرن منها إلاّ تحدثن عنها بما تكره، وهو معنى قولها « لقلما كانت امرأة قط وضيئة « أي: جميلة عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلاّ أكثرن عليها « أي إلاّ أكثرن عليها الأحاديث بما يسيء إليها « فقلت: سبحان الله « تعجباً مما سمعت « قالت: فبت تلك الليلة لا يرقأ لي دمع « أي فبت تلك الليلة كلها أبكي لا يكف لي دمع وقضيتها كلها ساهرة، لا أذوق طعم النوم. (منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري ٤/ ٣٦). قالتْ: فقُلْتُ: سُبْحَانَ الله، أَوَلَقَدْ تحَدَّثَ النَّاسُ بهذا؟ قالتْ: فبَكيْتُ تلْكَ اللَّيْلَةَ حتَّى أَصْبَحْتُ لا يَرْقأُ لي دَمْعٌ ولا أَكْتَحلُ بنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ أَبْكي. قال ابن حجر: قوْلها: فقلْتُ: سُبْحَانَ الله؛ اسْتغاثتْ بالله مُتعجِّبَةً منْ وُقُوع مثْل ذلكَ في حقِّها مَعَ بَرَاءتها المُحَقَّقة عنْدهَا، وقوْلُها: لا يَرْقأُ لي دَمْعٌ أي لا يَنْقطعُ، ولا أكْتحلُ بنوْم اسْتعارةٌ للسَّهر، وفي روايَة مَسْرُوق قالت أمها أم رومان: فخرَّتْ مَغْشيًّا عليْها .فما اسْتفاقتْ إلاّ وعليْها حُمَّى بنافض (يعني حمى برعشة تنفض الجسم نفضا) فطرحْتُ عليْها ثيابها فغطَّيْتُها، وفي روايَة الأسْود قالت عائشة: فألْقتْ عليَّ أُمِّي كُلَّ ثـوْبٍ في البَيْت. (فتح الباري لابن حجر ٨/ ٤٦٧).

قالتْ:» ودعـا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم عَليَّ بْنَ أبي طالب وأسامة بْنَ زَيْد حينَ اسْتلْبَثَ (تأخر) الوحْيُ، يَسْألهُما ويَسْتشيرُهُما في فراق أهْله، قالتْ: فأمَّا أُسامَةُ فأشار على رَسُول الله صلى الله عليه وسلم بالَّذي يَعْلمُ منْ براءة أهْله، وبالَّذي يعْلمُ لهُمْ في نفْسه، فقال أُسامَةُ: أهْلكَ، ولا نعْلمُ إلَّا خيْرًا، وأمَّا عليٌّ فقال: يا رَسُول الله، لمْ يُضيِّق اللهُ عليْك، والنِّساءُ سواها كثيرٌ، وسَل الجاريةَ تُصْدقْكَ».

قوْلُها: يَسْتشيرُهُما في فراق أهْله. فيه مُشاورَةُ الإنْسان بطانتهُ وأهْلهُ وأصْدقاءهُ فيما يَنْويه منْ الأُمُور. ويحسن أن يقُولَ الإنْسانُ في التَّعْديل: لا أعْلمُ عليْه إلَّا خيرًا. أما قوْلُ أُسامَةَ: هُمْ أهْلُكَ؛ أيْ العَفائفُ اللَّائقاتُ بك كما في قوْله تعالَى «وَالطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ » (النور: ٢٦)، وليْسَ المُرادُ بذلكَ أنَّهُ تبرَّأَ منْ الإشارَة ووَكَلَ الأمْـرَ في ذَلكَ إلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم؛ لأنَّهُ أعْلمُ بهَا منْهُ لقَوْل عائشَةَ: «فأشارَ عَلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بالَّذي يَعْلَمُ منْ بَرَاءَة أهْله» إلَى آخره، فدَلَّ عَلَى أنَّهُ أشارَ

وَبَرَّأَهَا بِكَلَامِه هَذَا. وَأَمَّا قَوْلُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِب رضي الله عنه: لَمْ يُضَيِّقْ اللهُ عَلَيْكَ وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ. فَقَالَ النَّوَوِيُّ: هَذَا هُوَ الصَّوَابُ فِي حَقِّ عَلِيٍّ رضي الله عنه؛ لأَنَّهُ رَآهَا مَصْلَحَةً وَنَصِيحَةً لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي اعْتِقَادِه؛ لأَنَّهُ رَأَى انْزِعَاجَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بِهَذَا الأَمْرِ وَقَلَقَهُ فَأَرَادَ إِرَاحَةَ خَاطِرِهِ وَكَانَ ذَلِكَ أَهَمَّ مِنْ غَيْرِه. (طرح التثريب في شرح التقريب ٨/ ٥٩).

قال ابن حجر: وَهَذَا الْكَلَامُ الَّذِي قَالَهُ عَلِيٌّ حمله عَلَيْه تَرْجِيح جانب أن النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ لَمَّا رَأَى عِنْدهِ من القلق بِسَبَبِ الْقَوْلِ الَّذِي قيل وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ شديدَ الْغَيْرَةِ فرأى عَلِيٌّ أَنَّهُ إِذَا فَارَقَهَا سَكَنَ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْقَلَقِ بِسَبَبِهَا، إِلَى أَنْ يَتَحَقَّقَ بَرَاءَتَهَا فَيُمْكِنُ رَجْعَتُهَا، وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ ارْتِكَابُ أَخَفِّ الضَّرَرَيْنِ لِذَهَابِ أَشَدِّهِمَا. وَقَالَ النَّوَوِيُّ: رَأَى ذَلِكَ هُوَ الْمَصْلَحَةُ فِي حَقِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاعْتَقَدَ ذَلِكَ لِمَا رَأَى مِنِ انْزِعَاجِه فَبَذَلَ جُهْدَهُ فِي النَّصِيحَةِ لإِرَادَتِه رَاحَةَ خَاطِرِه صلى الله عَلَيْه سلم، وَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّد بْن أَبِي جَمْرَةَ: لَمْ يَجْزِمْ عَلِيٌّ بِالإِشَارَةِ بِفِرَاقِهَا لأَنَّهُ عَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِه: وَسَلِ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ؛ فَفَوَّضَ الأَمْرَ فِي ذَلِكَ إِلَى نَظَرِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَكَأَنَّهُ قَالَ: إِنْ أَرَدْتَ تَعْجِيلَ الرَّاحَةِ فَفَارِقْهَا، وَإِنْ أَرَدْتَ خِلَافَ ذَلِكَ فَابْحَثْ عَنْ حَقِيقَةِ الأَمْرِ إِلَى أَنْ تَطَّلِعَ عَلَى بَرَاءَتِهَا، لأَنَّ عَلِيًّا رضي الله عنه كَانَ يَتَحَقَّقُ (يتأكد) أَنَّ بَرِيرَةَ لَا تُخْبِرُهُ صلى الله عليه وسلم إِلَّا بِمَا عَلِمَتْهُ، وَهِيَ لَمْ تَعْلَمْ مِنْ عَائِشَةَ إِلَّا الْبَرَاءَةَ الْمَحْضَةَ، وَالْعِلَّةُ فِي اخْتِصَاص علي وَأُسَامَةَ بِالْمُشَاوَرَةِ أَنَّ عَلِيًّا كَانَ عِنْدَ النبي صلى الله عليه وسلم كَالْوَلَدِ؛ لأَنَّهُ رَبَّاهُ مِنْ حَالِ صِغَرِه ثُمَّ لَمْ يُفَارِقْهُ، بَلْ وَازْدَادَ اتِّصَالُهُ بِتَزْوِيج فَاطِمَةَ، فَلِذَلِكَ كَانَ مَخْصُوصًا بِالْمُشَاوَرَةِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأَهْلِه لِمَزِيدِ اطِّلَاعِه عَلَى أَحْوَالِه أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِه، وَكَانَ أَهْلُ مَشُورَتِه فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالأُمُورِ الْعَامَّةِ أَكَابِرَ الصَّحَابَةِ كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ.

وَأَمَّا أُسَامَةُ فَهُوَ كَعَلِيٍّ فِي طُولِ الْمُلَازَمَةِ وَمَزِيدِ الاخْتِصَاصِ وَالْمَحَبَّةِ، وَلِذَلِكَ كَانُوا يُطْلِقُونَ عَلَيْهِ أَنَّهُ حِبُّ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَخَصَّهُ دُونَ أَبِيهِ وَأُمِّهِ لِكَوْنِهِ كَانَ شَابًّا كَعَلِيٍّ، وَإِنْ كَانَ عَلِيٌّ أَسَنَّ مِنْهُ وَذَلِكَ أَنَّ لِلشَّابِّ مِنْ صَفَاءِ الذِّهْنِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِه وَلأَنَّهُ أَكْثَرُ جُرْأَةً عَلَى الْجَوَابِ بِمَا يَظْهَرُ لَهُ مِنَ الْمُسِنِّ لأَنَّ الْمُسِنَّ غَالِبًا يَحْسُبُ الْعَاقِبَةَ فَرُبَّمَا أَخْفَى مَا يَظْهَرُ لَهُ رِعَايَةً لِلْقَائِلِ تَارَةً وَالْمَسْئُولِ عَنْهُ أُخْرَى، مَعَ مَا وَرَدَ فِي بَعْضِ الأَخْبَارِ أَنَّهُ اسْتَشَارَ غَيْرَهُمَا. (فتح الباري لابن حجر ٨/ ٤٦٩).

قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَرِيرَةَ، فَقَالَ: «أَيْ بَرِيرَةُ، هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ؟». قَالَتْ لَهُ بَرِيرَةُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا قَطُّ أَغْمِصُهُ غَيْرَ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ، قَالَتْ: فَقَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ يَوْمِه فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ، وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ أَذَاهُ فِي أَهْلِي، وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي». قَالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ أَخُو بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ أَعْذِرُكَ، فَإِنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

عزاء

فقدت أنصار السنة المحمدية في الشرقية واحدًا من أعز شبابها وهو الأخ «هاني محمد درويش»، عضو مجلس الإدارة بجمعية أنصار السنة فرع البلاشون ببلبيس- شرقية- وإمام مسجد التوحيد.

ورئيس التحرير يدعو الله العلي القدير أن يرحمه رحمة واسعة، وأن يسكنه فسيح جناته.

فتاوى

من فتاوى الأزهر الشريف

السؤال: تحرص بعض السيدات على صيام شهر رجب وشهر شعبان ووصلهما بصيام شهر رمضان، فهل ذلك مشروع؟

ج: إن الصيام المفروض هو صيام شهر رمضان، وصيام النذر والكفارات، وما عدا ذلك فمستحب، والرسول صلى الله عليه وسلم رغب في صيام التطوع بمثل ما جاء في صحيحي البخاري ومسلم " ما من عبد يصوم يوما في سبيل الله تعالى إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفًا".

ومن الصيام المستحب الصيام في الأشهر الحرم التي منها شهر رجب، وكذلك الصيام في شهر شعبان وقد سبق في صفحة ٤٤٢ من المجلد الثالث (من مجلة الأزهر) حكم الصوم في شهر رجب وما نقله ابن حجر عن الطرطوشي في كراهة الحرص على صيام رجب تشبيها برمضان، أو لأنه ثابت مؤكد، أو لفضل خاص يزيد على صيام باقي الشهور.

وبخصوص الصيام في شهر شعبان وردت أحاديث صحيحة منها ما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم أكثر شهر شعبان، بل كان يصومه كله أحيانا وجاء في رواية تقول في سبب ذلك:

تعظيما لرمضان، كما روى النسائي أن أسامة بن زيد سأله صلى الله عليه وسلم لم أرك تصوم في شهر ما تصوم في شهر شعبان، فقال "ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان، وهو شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين، وأحب أن يرفع عملي وأنا صائم " وصيامه كله أو أكثره لمن وصل النصف الثاني بالنصف الأول: أما الذي لم يصله فيكره أو يحرم أن ينشئ صياما في النصف الثاني لحديث رواه أبو داود، وبه أخذ الشافعي، كما جاء النهى عن صوم يوم أو يومين قبل رمضان لحديث رواه الجماعة " لا تقدَّموا -تتقدموا- صوم رمضان بيوم ولا يومين، إلا أن يكون صوم يصومه رجل فليصم ذلك اليوم ".

فالصوم في رجب وشعبان مشروع كما قدمنا، الأول لأنه من الأشهر الحرم والثاني لفعل النبي صلى الله عليه وسلم، غير أن هناك توصية بعدم الإرهاق وتكلف الإنسان ما لا يطيق، ففي البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يصوم شهرًا أكثر من شعبان فإنه كان يصوم شعبان كله، وكان يقول "خذوا من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا ".

فإذا كان في صيام الشهرين إرهاق يؤثر على صيام رمضان كان التتابع مخالفا للحديث، ويكره أن يكون ذلك عن طريق النذر فقد يحصل العجز ويكون المحظور، ومن استطاع بغير إرهاق فلا مانع، مع مراعاة إذن الزوج إذا أرادت الزوجة أن تصوم هذا التطوع، ففي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم " لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه "

(فتاوى الأزهر الشريف ٩/ ٢٨٥).

فضيلة الشيخ عطية صقر رحمه الله

السؤال الثامن من الفتوى رقم (١٦٤٠٢):

س: ما الفرق بين بيع التقسيط ومسألة التورق؟

ج: بيع التقسيط هو: بيع السلعة بثمن مؤجل، يسدده على فترات متفرقة، وأما مسألة التورق، فهي أن يشتري سلعة بثمن مؤجل؛ ليبيعها في السوق على غير الدائن، وينتفع بثمنها، وإذا حل الأجل سدد لصاحبها ثمنها الذي اشتراها به مؤجلا، والبيع بالتقسيط جائز، ولا يلتفت إلى القول بعدم جوازه؛ لشذوذه، وعدم الدليل عليه، أما مسألة التورق فمحل خلاف، والله أعلم.

وبالله التوفيق وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

السؤال الأول من الفتوى رقم (١٩٩٣٠):

س: يوجد لدينا مكان لاستبدال الأدوات المنزلية وذلك بأن تحضر إليه الثلاجة أو الغسالة القديمة ثم يقوم بشرائها منك، ثم تشتري منه ثلاجة أو غيرها جديدة، وتدفع الفرق. فما حكم هذا العمل؟

ج: لا بأس باستبدال الأدوات المنزلية القديمة بأدوات جديدة مع زيادة يدفعها صاحب الأدوات القديمة، نظرا للفرق بين قيمة النوعين؛ لأن هذا من البيع الذي أحله الله، ولا محذور فيه، إذا لم يكن ذلك عن مشارطة.

وبالله التوفيق وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

السؤال الثاني من الفتوى رقم (٢٢٢٥)

س: من عليه دين وأراد تسديده، ولكن لم يجد أصحابه، فمنهم الميت، ومنهم من هاجر إلى الخارج ولم يعد إلى بلده، ومنهم من نسيه ولم يعد يعرفه. فما الحكم؟

ج: حقوق العباد واجبة الأداء، فيلزم من عليه دين لأي إنسان أن يبذل وسعه في إيصاله إليه أو إلى ورثته إن كان قد توفي، وفي حالة عجزه عن إيصاله إلى الورثة أو إلى صاحبه؛ لكونه هاجر إلى بلد لا يعرفها، أو لا يعرف عنوانه بها، أو نسي اسمه كليا فيتصدق بالدين الذي عليه على الفقراء بالنية عن صاحبه، فإن جاء صاحبه أخبره بالواقع، فإن رضي به وإلا دفع حقه إليه، وللمتصدق أجر تلك الصدقة إن شاء الله، ولا تبرأ ذمته بدون ذلك.

وبالله التوفيق وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

السؤال السادس عشر من الفتوى رقم (١٩٦٣٧):

س: ما حكم المماطلة في تسديد الدين؟

ج: من كان قادرا على الوفاء لدينه فإنه يحرم عليه المماطلة في تسديد ما وجب في ذمته إذا حل أجله؛ لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: مطل الغني ظلم، وإذا أتبع أحدكم على مليء فليتبع متفق عليه.

فعلى من عليه دين أن يبادر بوفاء ما في ذمته من حقوق الناس، وليتق الله في ذلك قبل أن يفاجئه الأجل وهو معلق بديونه.

وبالله التوفيق وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

السؤال الثاني من الفتوى رقم (١٩٦٩٣):

س: يقول أحد الجيران: تزوجت من امرأة ثرية، ترك لها زوجها أموالا من الرشوة والربا، وعندما توفي هذا الرجل وتزوجت منها طلبت مني أن أتاجر بأموالها في السوق (تجارة لا تدخل فيها المحرمات)، وعندما رفضت خيرتني في أمرين هما: التجارة أو الطلاق، مع العلم أن الأموال فيها محرمات فماذا يفعل؟

ج: الأموال الحاصلة من طرق محرمة: كالرشوة والربا، أموال محرمة، لا يجوز للمسلم تمولها والانتفاع بها أو المتاجرة بها، والله الهادي إلى سواء السبيل.

وبالله التوفيق وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

وفاة رئيس أنصار السنة بالسودان

تحتسب جماعة أنصار السنة المحمّدية بمصر عند الله تعالى سماحة الشيخ الوالد أبو زيد محمد حمزة، رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية بالسودان، الذي توفي يوم الأحد ٣ مايو، بالسودان.

وإذ نعزّي الأمة الإسلامية في فقده، فإننا نرجو الله تعالى له المغفرة، فالشيخ رحمه الله عاش عمرا طويلا يدعو إلى توحيد الله تعالى، واتّباع النبيّ صلى الله عليه وسلّم، دعوة وعملا وجهادًا وصبرًا.

لقد عرفت المنابر فقيدنا الشيخ يصدع بكلمة الحق فلاقى في سبيل ذلك ما لاقى من الأذى محتسبا، على سنة النبيين، يدعو إلى الله على بصيرة، متخذاً من الحكمة والموعظة الحسنة سبيله إلى القلوب، حتى بسط الله تبارك وتعالى له القبول وهوت إليه الأفئدة، وعرف فضله البعيد قبل القريب، فخرّج العشرات من طلاب العلم ينشرون الخير ويصدعون بكلمة الحق في كل أركان الدنيا، وما فتئ وهو يصارع المرض والألم في أيامه الأخيرة يذكر من حوله بضرورة التمسك بدعوة التوحيد.

وقد شارك الرئيس السوداني عمر البشير وعدد من المسئولين السودانيين والقيادات الدعوية في جنازة الفقيد، واحتسبت رئاسة الجمهورية الفقيد، مشيرة إلى إسهاماته في مجال الدعوة الإسلامية، معتبرة أنه نذر حياته خدمة للإسلام ونشرا للعلم.

ترجمة يسيرة لسماحة الشيخ أبو زيد محمّد حمزة، رحمه الله

والشيخ أبو زيد محمد حمزة، من مواليد عام ١٩٢٥م بقرية «أشكيت»، التابعة لوادي حلفا، حيث نشأ وترعرع وبدأ تعليمه، ثم سافر إلى مصر مع والده وتلقى فيها دراسات في القرآن الكريم، والتحق بالأزهر عام ١٩٤٢م، وتعلم دعوة التوحيد على يد العلامة محمد حامد الفقي، رحمه الله، مؤسس جماعة أنصار السنّة المحمدية بمصر، ثم عاد إلى السودان داعيةً إلى توحيد الله تعالى، واتباع النبيّ صلى الله عليه وسلم.

لقد عرف السودان شرقه وغربه، شماله وجنوبه بواديه وحواضره الشيخ داعيًا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، متحمّلا في سبيلها المشاقّ، صابرًا محتسبًا، يبلّغ دعوة التوحيد بلا كلال.

تتلمذ علي يديه جمعٌ من العلماء والدعاة داخل السودان وخارجه، من أبرزهم وأكثرهم له ملازمة تلميذه الشيخ الدكتور محمد الأمين إسماعيل، والشيخ محمد سيد حاج رحمه الله، وغيرهم.

ومنذ أن صار الشيخ أبوزيد محمد حمزة رئيسًا عامًا للجماعة بالسودان كان حريصًا على الحفاظ على هويتها العلمية الدعوية التربوية الإصلاحية، وعدم الزجّ بها في ما يؤثّر على رسالتها التي قامت من أجلها، فحافظ عليها جماعةً قوية مؤتلفة فاعلة، تنتهج سبيل أهل السنة والجماعة في المعتقد والمواقف والسلوك، كما حرص على التواصل مع الهيئات الدعوية والعلمية في السودان، وعرف عنه سعيه الجاد لتوحيد كلمة الدعاة، والإصلاح بين المجموعات الدعويّة وتعزيز الرباط الأخويّ والتعاونيّ على البرّ والتقوى والمبادرة إلى ذلك، والنصح لأئمة المسلمين وعامّتهم.

ويعدّ سماحة الشيخ أبو زيد محمد حمزة رحمه الله من العلماء العاملين، الذين وثّقوا صلاتهم بعلماء العالم الإسلامي ودعاته لجمع الكلمة على توحيد الله تعالى، فشهد له العلماء والدعاة بالخير والصلاح، والجمع بين العلم والعمل والجهاد ؛ والله حسيبه. ولم يزل وهو في فراش موته يوصي بالتوحيد والاستمساك بالسنّة والالتزام بالهدي النبويّ. رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه الفردوس الأعلى مع النّبيين والصديقين والشهداء والصالحين.



الآن
المجلد الجديد بمقر مجلة التوحيد
١٤٣٥
موسوعة علمية لاتخلو منها مكتبة ويحتاج اليها كل بيت
سارع بحجز نسختك من المجلد الجديد
الآن أصبحت ٤٣ مجلداً من الموسوعة
الموسوعة العلمية والمكتبة الإسلامية في شتى العلوم ، ثلاثة وأربعون عاماً من مجلة التوحيد .
أكثر من ٨٠٠٠ بحث في كل العلوم الشرعية من مجلدات مجلة التوحيد.
استلم الموسوعة ببلاش بدون مُقدَّم ؛ فقط ادفع ٨٥٠ جنيهاً بعد الاستلام على ثمانية أشهر .
من يرغب في اقتنائها فعليه التقدم بطلب للحصول عليها من إدارة الدعوة بالفرع التابع له
أو من خلال قسم الاشتراكات بمجلة التوحيد بطلب مُزكًى من الفرع .
23936517